اقرأ

معركة العلمين



السيد فرج

دار المعارف

معركة العلمين

السيد فرج

معركة العلمين

دراسة عن معركة « العلمين » التاريخية فى
مناسبة مرور خمس وعشرين سنة عليها

اقرأ ٢٩٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٩٣ – مايو سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

غاية الدراسة

إن الغاية من دراسة معركة العلمين ، بعد خمس وعشرين سنة ، هى استعادة ذكرى معركة تاريخية جرت فى بلادنا ، وأحدثت تأثيراً بليغاً فى مجرى الحرب العالمية الثانية ، بل يجزم أكثر من مرجع عسكرى أنها كانت نقطة التحول فى تلك الحرب ، ونهاية البداية لمرحلة الانقضاض الألمانى .

وقد نشرت « الأهرام » فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٦ الرسائل الثلاث الممتعة المتبادلة بين الرئيس جمال عبد الناصر والمارشال مونتجمرى ، والتى قال فيها الرئيس للمارشال :

« إن كثيرين هنا يقدرون الأهمية التاريخية لمعركة العلمين ، ولدورك الممتاز فى قيادتها ، والآثار البعيدة التى ترتبت على النصر فيها » .

. . . .

وقد أثارت معركة العلمين — فى حينها ، وبعد سنوات من انقضائها — عدة أسئلة وقضايا فى مقدمتها :

١ — هل تعدّ معركة العلمين نقطة التحول فى الحرب العالمية الثانية ؟

٢ ــ أكانت « معركة مصر » ــ كما أطلق عليها ــ أم كانت معركة ليس لمصر فيها ناقة ولا جمل ؟

٣ ــ ما كان الهدف وراء معركة العلمين ؟ هل كان التوسع الاستعمارى لأحد الطرفين ؟ هل كان فتح البحر المتوسط ؟ هل كان الهدف : السويس ؟

٤ ــ هل جاءت معركة العلمين بجديد فى فن الحرب عامة ، والحرب الصحراوية خاصة ؟

٥ ــ ماذا كان أثر القائدين فى المعركة ؟ وما أسرار اشتهار روميل ومونتجمرى ؟ !

٦ ــ هل بقيت لمعركة العلمين ــ بعد خمس وعشرين سنة ــ قيمتها ، وثمرات عملياتها العسكرية ، ودروسها المستفادة ؟

. . . .

وإلى جانب الدراسة سنقدم ثلاث خرائط :

(١) خريطة الحدود المصرية الليبية .

(٢) خريطة معركة علم حلفا .

(٣) خريطة معركة العلمين الكبرى (على الغلاف) .

كما نقدم صوراً لقادة هذه المعركة الحاسمة من معارك التاريخ .



فيلد مارشال مونتجومری أوف علمين

معركة العلمين

هل كانت نقطة التحول فى الحرب العالمية الثانية ؟

« إن العدو الآن فى قبضة يدنا ، وهو على وشك الدمار . . لقد أضحى النصر النهائى قريب المنال »

مونتجمرى

خمس وعشرون سنة انقضت على معركة العلمين . . .

وهى المعركة التى دارت على ثرى مصر بين قوات « الحلفاء » وقوات « المحور » ، وكانت معركة كاملة وفاصلة اندحرت فيها القوات الألمانية والإيطالية ، وجلت عن شمال أفريقيا ، وانتقل زمام الحرب — لأول مرة — إلى يد بريطانيا وحلفائها . . . وبهذا كانت معركة العلمين نقطة التحول فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت — كما وصفها ونستون تشرشل — : « بداية النهاية » .

بدأت معركة العلمين فى ليلة الرابع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٤٢ بهجوم قوى منظم من الجيش الثامن ، بقيادة «الجنرال» مونتجمرى ، على القوات الألمانية والإيطالية — بقيادة الفيلد مارشال روميل ، وكانت هذه القوات متحصنة خلف المناطق الملغمة ضد المصفحات ، على مسافة ٦٠ ميلا من

الإسكندرية . وانتهت المعركة يوم ٤ نوفمبر بهزيمة تامة لجيش المحور .

فقد الجيش الألمانى والإيطالى — فى معركة العلمين — ١٠,٠٠٠ قتيل وجريح و ٣٠,٠٠٠ أسير و ١٠٠٠ مدفع ، و ٥٠٠ دبابة .

وخسر الجيش الثامن ١٣,٠٠٠ جندى و ٤٥٠ دبابة .

كتب الكتّاب من رجال الحرب والسياسة والتاريخ عن معركة العلمين ، من زوايا ووجهات نظر متعددة ، كذلك سجلت أحداثها ووقائعها السجلات الرسمية ودوائر المعارف ، وظهر ما يشبه الإجماع على أنها تدخل فى عداد المعارك الكبرى فى التاريخ ، وذلك لما اجتمع لها من حشود هائلة من الرجال والعتاد والأسلحة ، وما ظهر فيها من صور جديدة للحرب — وبخاصة الحرب الصحراوية — كبثّ الألغام فى مواجهة المدرعات والمشاة ، وضرب الطائرات لخطوط المواصلات ، والتركيز الشديد لنيران المدفعية على مواقع معينة . .

. . كما أن آثارها فى الموقفين العسكرى والسياسى كانت بعيدة المدى ، فقد أحدثت تأثيراً معنوياً بليغاً لدى الجيوش والشعوب ، وقضت على الرهبة التى كانت تتقدم الهجوم الألمانى المروع . .

كذلك حددت معركة العلمين أمد الحرب ومسرحها الأخير فى أوربا ، ونقلت الثقة والأمل من معسكر المحور إلى معسكر الحلفاء ، وفصلت فى شأن اشتباك كبير كان الغرض منه

السيطرة على البحر المتوسط وقناة السويس . . .

وكانت الحرب العالمية الثانية تشغل فى ذلك الوقت ثلاثة مسارح رئيسية :

● مسرح الحرب الألمانية الروسية الذى انتهى فصله الأخير بهزيمة الألمان فى ستالينجراد ، وتراجعهم المر حتى تم استسلامهم فى برلين .

● مسرح الحرب الأمريكية اليابانية الذى وضعت نهايته القنبلة الذرية على هورشيما .

● مسرح الحرب فى البحر المتوسط الذى قررت مصيره معركة العلمين ، وتحول إلى الجبهة الثانية ، حيث أنزل الحلفاء قواتهم على الشاطئ الفرنسى ، وتابعوا زحفهم إلى برلين .

كذلك ترجع أهمية معركة العلمين — بالنسبة لمصر — إلى أنها جرت على أرض مصر . وكانت « السويس » هى هدف المتحاربين . . .

وقد حركت هذه الحرب أذهان المصريين ووجدانهم ، وأكدت الأهمية الاستراتيجية لموقع مصر وقناة السويس ، وأثارت الأمل والعزم فى أن يكون لشعب مصر السيطرة الكاملة على أرضه وقناته .

لقد جاء الغريمان يقتتلان على أرض لا يملكها أحدهما ، ونقلا النزاع إلى بلد مسالم ، وأفرغا حمولتهما من الشحناء والبغضاء والنار والحديد . . . ثم دارت دورة الزمان ، ومضى التاريخ فى

تطوره المحتوم ، وذهب المنتصر والمهزوم ، وحمل المستعمر عصاه على كاهله ورحل . . . وسلمت مصر ، وعزّ جيشها ، وانتصرت ثورتها ، وتأكدت سيادتها .

مقدمات المعركة :

فى ١٠ يونيو عام ١٩٤٠ أعلنت إيطاليا الحرب — إلى جانب ألمانيا واليابان — ضد إنجلترا وأمريكا وحلفائهما ، وخطب موسولينى زعيم إيطاليا فى تلك المناسبة فقال :

« لقد قضى الأمر ، وأحرقنا بمحض إرادتنا الجسور التى خلفنا . وإنى أعلن على رؤوس الأشهاد أن إيطاليا لا تنوى جرّ الشعوب التى تجاورها إلى نزاع . . . فلتسمع سويسرا ويوغوسلافيا وتركيا ومصر واليونان . . . »

وفى اليوم التالى تحركت طائرات الطرفين ، وبدأت مناوشات الدوريات على منطقة الحدود بين مصر وليبيا ، وصدر أول بلاغ رسمى من مركز قيادة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط باحتلال الإنجليز لقلعتى كابوتزو ومادلينا ، بعد ضربهما بقنابل الطائرات .

وتقدمت القوات الإيطالية إلى السلوم ، وأغارت الطائرات على سيدى برانى ومرسى مطروح والإسكندرية . . . وبدأت

حرب الصحراء المصرية ، من أجل السيطرة على البحر المتوسط وقناة السويس .

وكانت الحدود بين مصر وليبيا قد رسمتها اتفاقية الحدود المعقودة فى القاهرة فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، وتبدأ من نقطة على ساحل البحر بين السلوم (المصرية) والبردية (الليبية) ، وتسير الحدود جنوباً فى خط متعرج يمر بين واحتى سيوة وجغبوب ، ثم تستقيم على خط طول ٢٥ إلى العوينات .

ويمكن تلخيص الحرب فى الصحراء الغربية ، حتى حدثت معركة العلمين ، فى ست جولات رئيسية :

١ ــ بدأت الجولة الأولى ، فى الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٠ ، بزحف القوات الإيطالية ، بقيادة المارشال جرازيانى ، وانتهت باحتلال الإيطاليين موقع سيدى برانى .

٢ ــ وبدأت الجولة الثانية فى اليوم السابع من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٠ بهجوم القوات الإنجليزية ، بقيادة الجنرال ويفل ، الذى استطاع فى خلال عشرة أيام أن يهزم القوات الإيطالية ، ويقصيها خارج الحدود المصرية ، ويحتل ولاية برقة . وأعلن ونستون تشرشل لمجلس العموم والشعب البريطانى أنه « فى خلال ثمانية أسابيع حدثت تلك الحملة التى ستدرس فيما بعد كنموذج للفن العسكرى . فالجيش الإيطالى فى ليبيا ــ البالغ مائة وخمسين ألفاً ــ قد أسر أو أبيد ، ووقعت فى أيدينا ولاية برقة » . كما أنه

وصف ويفل بأنه من رجال الحرب « ذوى الحصافة والجسارة والإقدام » .

٣ – وبدأت الجولة الثالثة فى شهر أبريل سنة ١٩٤١ بزحف قوات المحور تحت قيادة الجنرال روميل ، القائد الألمانى الذى خلف المارشال جرازيانى فى القيادة العامة . واستطاع روميل فى سبعة أيام أن يدفع القوات الإنجليزية أمامه سبعمائة ميل فى هزيمة دامية وانسحاب مرّ . . . من بنغازى إلى السلوم .

٤ – وبدأت الجولة الرابعة فى شهر نوفبر سنة ١٩٤١ عندما شرعت القوات الإنجليزية فى الزحف بقيادة الجنرال كننجهام ، وتحت إشراف القيادة العامة للجنرال أوكنلك –الذى خلف ويفل– حتّى بلغت طبرق ، وتولى القيادة الجنرال ريتشى الذى استطاع رفع الحصار عن طبرق ، وتقدم بسرعة فى ولاية برقة حتّى وصل إلى بنغازى مرة ثانية .

٥ – وبدأت الجولة الخامسة فى شهر مايو سنة ١٩٤٢ بهجوم هائل لقوات المحور ، تحت قيادة المارشال روميل ، فهزم القوات البريطانية فى بير حكيم والغزالة ، ثم استولى على طبرق ودخل الحدود المصرية واستولى على مرسى مطروح وفوكة والضبعة ، ووصل إلى العلمين .

وقد ظهرت فى تلك العمليات براعة القائد الألمانى روميل وجسارته ، فقد كانت القوات الإنجليزية متفوقة فى عدد



فیلد مارشال اروین رومیل

الدبابات بنسبة ٧ إلى ٥ ، ومتفوقة أيضاً في المدافع بنسبة ٨ إلى ٥ ، ومتفوقة في الجو .

وأجمعت أغلب المصادر على أن تلك العمليات كان النصر فيها للقائد ، وأصبح اسم روميل يثير فزع الجنود والقادة الإنجليز . وقالت جريدة التيمس اللندنية «إن قواتنا كانت تواجه قوات متفوقة في القيادة ، وإنها نازلت جيشاً مظفراً هزمها هزيمة مروعة» . وقال تشرشل : « أمامنا خصم جرىء ماهر ، هل لى أن أقول إنه قائد عظيم ! »

٦ — ثم بدأت الجولة السادسة في العلمين . . .

كانت القوات البريطانية تتراجع متعجلة مذعورة أمام الزحف الألماني الخاطف . ولم يجد الجنرال أوكنلك بداً من تنحية الجنرال ريتشي ، وأن يتولى هو بنفسه قيادة العمليات ، ثم راح يبذل جهده لتفادى الكارثة والابتعاد عن معركة حاسمة ، ويواجه أخطر صور الهزيمة ؛ ولهذا قرر الجلاء بسرعة عن مرسى مطروح ، في حين دفع الطائرات البريطانية إلى تعطيل زحف روميل ، وضرب خطوط المواصلات .

وانتقل القتال بعد مرسى مطروح إلى فوكة ثم الضبعة ، وتراجع الإنجليز عدة أميال أخرى حتى وصلوا إلى الجبهة التى اختارها الجنرال أوكنلك ، ليقف الزحف . . .

وقد تم ما أراده فعلا ، إذ وقفت طبيعة الأرض إلى جانبه ، وأعطته موقعاً دفاعياً يناسب احتياجه العاجل مناسبة لا نظير لها .

وهذه المنطقة تقع بين الساحل — عند بلدة العلمين — وبين منخفض القطارة ، وتضيق إلى ناحية الشرق على شكل يشبه عنق الزجاجة . . . وفى هذه الساحة حدث التوقف ، وتغير الموقف ، وثبت الإنجليز ، وتعطل الألمان .

تولى مونتجمرى قيادة الجيش الثامن فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٢ ، وقد وجده على خط طوله ٣٥ ميلا من الشمال إلى الجنوب ، وموقعه من البحر بالقرب من تل آل عيسى إلى قرية الحميات . وكان الجيش يشكو من عجز فى الدبابات الفعالة والمدافع المضادة للدبابات ؛ وكان قد فقد ثقته فى القيادة العليا . أما جيش المحور — وبالرغم من تفوقه فى التسليح — فقد كان ينقصه المشاة التى يعتمد عليها وكذلك وسائل النقل ، وكانت ترهقه صعوبات التموين بسبب الخسائر البحرية الجسيمة على خط الاتصال الطويل من نابولى إلى طرابلس وبنغازى .

* * *

قام روميل بهجوم فى ليلة الحادى والثلاثين من أغسطس ، وقد اخترق جبهة الفرقة الثالثة عشرة داخل القطاع الجنوبى ، ولكنه عجز عن الاستيلاء على موقع علم الحلفا ؛ وبعد قتال دام سبعة أيام اضطرت قوات المحور إلى التراجع بعد خسائر جسيمة فى الأرواح والعربات .

وكانت نية مونتجمرى الأصلية تتجه إلى هجوم على القطاع الشمالى بأربع فرق مشاة ، وبعد تأمين منفذ — عبر ألغام العدو

الحدود المصرية الليبية

المضادة للدبابات ـ تتحرك فرقتان مصفحتان لاحتلال موقع عبر خط تموين المحور ، ولكنه نظراً للحالة التدريبية للقوات البريطانية عدلت الخطة ، وتقرر اتخاذ مواقع دفاعية لاستهلاك أسلحة المحور ، فى حين يقوم المشاة بالإستعداد لمواجهة المشاة ، وفى الجنوب كان على الفرقة الثامنة القيام بهجوم جانبى لشغل انتباه القيادة الألمانية ومنعها من الالتفات إلى قطاع الشمال ، وهو القطاع الرئيسى .

وقد اتخذت إجراءات مدروسة للوصول إلى مفاجأة العدو ، عن طريق إقناعه بأن الهجوم الرئيسى سيشن من الجنوب . وبدأت القوات الجوية سلسلة من الغارات الجوية بالنهار والليل على مطارات المحور حتى نجحت فى منع السلاح الجوى الألمانى من الطيران .

ويلاحظ أن سلاح الطيران البريطانى كان قد وصل فى أكتوبر إلى السيطرة التامة على الجو .

وفى يوم ٢٣ أكتوبر ــ وفى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة مساء ــ فتح أكثر من ألف مدفع بريطانى النيران على مواقع مدفعية المحور متجهة ناحية القوات الأمامية . . وفى ضوء القمر تقدمت أربع فرق خلف الستار ، وكانت قد سيطرت على معظم أهدافها قبل الفجر . واحتلت فرقتان مصفحتان موقع « المطرية » من خلال الممرين اللذين قام سلاح المهندسين بتطهيرهما من

الألغام ، وبعد نجاح محدود من الفرقة الثامنة صدرت الأوامر بتأجيل الهجوم إلى ما بعد ٢٥ أكتوبر .

* * *

ثم توالت أيام من القتال الصعب المحير ، وقد تمكن الجيش الثامن من التغلب على كل الهجمات المضادة التى قامت الدبابات الألمانية بها ، وعلى أقصى اليمين هاجمت الفرقة الأسترالية التاسعة — إلى الشمال نحو الساحل — بنجاح كبير فى الليالى المتتالية من ٢٥ إلى ٣١ أكتوبر ؛ وجذبت هذه المفاجآت المحلية كل الاحتياطى الألمانى إلى القطاع الشمالى بالقرب من الساحل ، وتركت المشاة الإيطاليين دون مساعدة .

فى ذلك الوقت كان مونتجمرى قد أعاد تشكيل قواته عن طريق سحب قوات ووضعها بالاحتياطى ، وفى ليلة ١ — ٢ نوفمبر هاجمت الفرقة النيوزيلندية الثانية المواقع الإيطالية بالغرب ، ونجح الهجوم ، وتغلب على هجمات العدو المضادة للدبابات ، وفى اليوم الثانى ظهرت علامات تراجع العدو ، وفى ليلة ٣ — ٤ نوفمبر أعد هجوماً سريعاً واستطاع الدخول إلى خط « تل العقاقير » ضد مقاومة لا تذكر ، ونجحت هذه الحركة فى عزل القوات الألمانية فى الشمال عن الفرق الإيطالية فى الوسط والجنوب . وفى الصباح التالى أرسلت فرقة للمطاردة ؛ وكانت القوات الألمانية تنسحب على الطريق الساحلى تحت هجوم

من الجو ، تاركة القوات الإيطالية بدون وسائل نقل ، فوقعت في أسر الجيش الثامن بسهولة .

وكانت معركة العلمين — بعد هذا الانتصار الحاسم — نقطة البداية لتقدم الجيش الثامن في غزوة خلابة انتهت بالقضاء على قوات المحور في أفريقيا ، ونقل المعركة إلى أوربا ، حيث تم فتح الجبهة الثانية .

أكانت معركة العلمين « معركة مصر » ؟

أم كانت معركة ليس لمصر فيها ناقة ولا جمل ؟ !

عندما تحرجت الحالة الدولية فى سنة ١٩٣٨ ، وظهرت نذر الحرب فى أوربا ، أخذت كل دولة تقدر موقفها ، وتعد عدتها وفق ما تقتضيه سياستها ومصالحها ، حيث لم يعد مستطاعاً — فى ظروف حرب عالمية — أن تبقى دولة بمنأى عن الحرب وأحداثها ونتائجها .

وقد كان واضحاً أن للصدام بين ألمانيا من ناحية وإنجلترا وفرنسا من ناحية أخرى لن يقف عند حدود هذه الدول ، فإن أوربا كلها كانت مشتركة فى الصراع أو متأهبة له ، كما نشأت جبهة لكل فريق تؤازره ، وتستعد لخوض المعركة إلى جانبه .

ووضح أن ألمانيا وإيطاليا واليابان تجمعها سياسة معادية لفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة ، كما وضح أن الاتحاد السوفييتى يتحفز للقيام بدور خطير ؛ وهكذا أصبح واضحاً أن الحرب ستكون شاملة ومتعددة الميادين .

وقد تتبعت مصر الحالة الدولية منذ أن تحرجت ، وأخذت تراقب أحداثها وتطوراتها ، ولا ريب أن اهتمام مصر بتطورات

الأزمة الدولية يرجع إلى توقع اشتراك إنجلترا من ناحية ، واحتمال دخول إيطاليا الحرب من ناحية أخرى .

وكانت مصر إلى جانب ذلك معرضة بحكم موقعها الجغرافى للإغارات الجوية ، ولبعض نتائج المعارك البحرية ، ولعمليات كانت منتظرة الوقوع بسبب قناة السويس . وقد رأينا فى السنوات التى سبقت الحرب كيف تحول البحر الأبيض المتوسط إلى مسرح للمناورات البحرية والجوية ، فلا يمتد الوقت به حتى يصبح ميدان المعارك الحاسمة .

وفى مصر الممر الرئيسى الذى يربط الشرق بالغرب ، وطريقاً بريطانياً إلى أجزاء الإمبراطورية ، وهما قناة السويس التى تؤدى إلى الهند ، وطريق القاهرة المؤدى إلى الكاب .

كما كانت مصر مرتبطة ببريطانيا بمعاهدة لندن سنة ١٩٣٦ التى تنص المادة السابعة منها على أنه « إذا اشتبك أحد الطرفين فى حرب فإن الطرف الآخر يقوم فى الحال بإنجاده بصفته حليفاً» وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة التى نصها :

« وتنحصر معاونة "حضرة صاحب الجلالة ملك مصر" فى حالة الحرب ، أو خطر الحرب الداهم ، أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها ، فى أن يقدم إلى صاحب الجلالة الملك والإمبراطور داخل حدود الأراضى المصرية ، ومع مراعاة النظام المصرى للإدارة والتشريع ، جميع التسهيلات الممكنة والمساعدة

التى فى وسعه ، بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات » .

وكان واضحاً أن البحر المتوسط سيكون أحد ميادين الحرب الرئيسية إذا اشتركت إيطاليا فى الحرب إلى جانب ألمانيا ضد إنجلترا وفرنسا .

وقد كان البحر المتوسط « تفاحة الخلاف » الشهيرة بين إيطاليا وفرنسا — كما تنبأ بذلك بسمارك قبل قرن من الزمان — ومنذ أن تفتحت نفس حكام إيطاليا فجعلت السيادة على هذا البحر فكرة إيطاليا الرئيسية ، ومحور سياستها ، وهدف حكومتها وشعبها — وبخاصة عندما تحركت أطماع موسلينى لإقامة إمبراطورية إيطالية — كانت الصحف الإيطالية تتحدث عن « البحيرة الإيطالية » و « بحرنا » ، وأن « إيطاليا سجينة البحر المتوسط ، وأن سجانيها يحتفظون بمفاتيح البحر فى جبل طارق والسويس » !

وكانت خطب رئيس إيطاليا ذات طابع خاص يحمل علامات التهديد والوعيد ، وتلوح دائماً بنذر المستقبل ، فيتلقاها الشباب الفاشيستى بصيحة راعدة : « تونس . كورسكا . السويس » .

وعندما بلغ مقياس الخطر نهايته خاطب موسلينى رجاله فقال : « إننا لمستعدون اليوم استعداداً ما بلغناه قط ، براً وبحراً وجواً ، ويسرنى أن آراكم لم تتغيروا . . فهل أنتم ثابتون ؟ » فيردون بقوة : « نعم » ! « وعلى استعداد للطاعة ! » . . . « نعم » . . ومستعدون أن

تقاتلوا ؟ نعم ، نعم ! إذن سيروا مع روما فى الأيام المقبلة ، إن الزحف لم ينته . . وما لأحد أن يوقفه ! »

ثم قال موسلينى إن الحرب لازمة لحياة الأمة ، وإنها خير مجدد لشباب الشعوب ، وإنها منذ سنة ١٩٣٥ من الصناعات الوطنية الإيطالية !

ولما أعلنت الحرب لم تشترك إيطاليا فيها ، ولكن وقفتها المحوطة بالغموض ، والمنطوية على خطر لا يعرف مداه ولا موعده ، قد سببت إرباكاً وتعطيلا لخطط الحلفاء ، وتأثيراً فى توزيع قواتهم ، وتوجيه دفتهم ، فاحتجزت فرقاً من الجند لها قيمتها فى أوقات شديدة الحرج والدقة ، انتظاراً لما يكشف عنه الغد من نوايا إيطاليا ، وبذلك أصابت إيطاليا بصمتها ما عجزت عنه بضجيجها ! ووقفت الدول المجاورة لها فى حيرة وجزع لا تستطيع بسببهما أن تكشف عن نواياها الحقيقية ، فبقيت على حذر وانتظار مر . .

فلما تتابعت حوادث الحرب ، وانتهى أمر فرنسا ، وجدت إيطاليا الساعة المناسبة لحمل السلاح ، فأعلنت الحرب فى ١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ ، وقال موسلينى : لقد قضى الأمر ، وأحرقنا بمحض إرادتنا الجسور التى خلفنا ؛ وإنى أعلن على رؤوس الأشهاد أن إيطاليا لا تنوى جر الشعوب التى تجاورها إلى نزاع ، فلتسمع سويسرا ويوغوسلافيا وتركيا ومصر واليونان . . .

ودخلت إيطاليا الحرب فى ١٠ يونيوعام ١٩٤٠ .

وفى ١٢ يوليو اتخذت مصر القرار التالى :

« مصر تحترم التحالف ، وتحفظ العهد ، وتبذل فى أراضيها كل ما تطلبه الحليفة من معاونة ، ولا تشترك فى الحرب إلا إذا اعتدت عليها إيطاليا » .

وفسرت الاعتداء بما يلى :

١ — إذا توغلت الجنود الإيطالية فى الأراضى المصرية ، مبتدئة .

٢ — إذا ضربت المدن المصرية بالقنابل .

٣ — إذا حدثت إغارات جوية على مواقع الجيش المصرى .

والذى حدث هو أنه فور إعلان إيطاليا الحرب بدأ الاشتباك فعلا بين القوات البريطانية والقوات الإيطالية على الحدود المصرية . وفى نفس اليوم — ١٠ يونيو عام ١٩٤٠ — صدر أول بلاغ رسمى من مركز قيادة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط يعلن احتلال الإنجليز لقلعتى كابوتزو ومادلينا — فى ليبيا — بعد ضربهما بقنابل الطائرات ، وأن القوات البريطانية أسرت مائة جندى ، وأن الطائرات هاجمت الأهداف العسكرية ، وضربت أنابيب المياه وخطوط المواصلات .

وكذلك أغارت الطائرات الإيطالية على السلوم وبرانى ومرسى مطروح ، وبدأت صفارات الإنذار تدوى فى الإسكندرية ، وقالت الصحف المصرية يوم ٢٤ يونيو إن صفارات الإنذار سمعت مع دوى المدافع ، وإنه حدثت عدة إغارات « شردت

نوم المدينة وأزتها نموذجاً حياً من العدوان على المدن الآمنة » . .

أى أن الحرب نشبت فى مصر بغير رغبة منها أو مصلحة لها فيها .

لم تكن مصر طرفاً فى النزاع ، كما لم تكن مالكة لرشدها ، أى غير قادرة على تقرير أمورها بنفسها وصنع مستقبلها بيدها .

والنزاع كان قائماً بين إيطاليا وإنجلترا ، كل منهما تسعى للسيطرة على الشاطئ الإفريقى والسيطرة على قناة السويس . .

. . أى أن مركز مصر الجغرافى يجعلها ساحة من الساحات الرئيسية فى الحروب العالمية ، وأن الدولة التى تملك السيطرة على قناة السويس والشاطئ الإفريقى تعد قوة عظمى لها شأنها فى الميزان الدولى ، وفى تقرير مصير الحرب .

لم تكن مصر طرفاً فى النزاع ، ولا كان لها دور فى الحرب ، وإنما جاء بالحرب إلى مصر الاحتلال البريطانى ، ورسم دور مصر معاهدة التحالف التى كانت تربطها ببريطانيا .

. . . . . .

وكان السؤال :

هل تشترك مصر فى الحرب ؟

وكان هناك أكثر من إجابة تحمل كل منها وجهة نظر لها شأنها :

١ — وجهة نظر تقول إن مصر ليست طرفاً فى النزاع وليس لها صلة بموضوعه ، فالصدام الذى حدث بين إنجلترا وفرنسا

من ناحية ، وبين ألمانيا وإيطاليا من ناحية أخرى ، كان بسبب مشكلات أوربية من ذيول الحرب العظمى .

وإذا كانت مصر قد أصبحت ميداناً للحرب فقد حدث ذلك بالرغم منها ، فإنجلترا تحارب لا من أجل مصر ولكن من أجل المصالح البريطانية . وإيطاليا لا تحارب ضد مصر ولكن تحارب إنجلترا .

ورفع أصحاب هذا الرأى شعاراً ، قاله شيخ الأزهر — الإمام المراغى — فى بيان مشهور :

« هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل » !

٢ — وجهة نظر تقول إن مصر مرتبطة ببريطانيا بمعاهدة ١٩٣٦ ، وإن هذه المعاهدة تفرض على مصر مساعدة حليفتها ، وإن هذه المساعدة حددت فى نصوص المعاهدة « بتقديم جميع التسهيلات الممكنة والمساعدة التى فى وسعه — أى وسع الحليف الطرف الثانى — بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات » .

وكانت وجهة النظر هذه حكومية أعلنها رئيس الوزراء أمام البرلمان يوم ١٢ يونيو عام ١٩٤٠ :

« إن مصر تحترم التحالف ، وتحفظ العهد ، ولا تشترك فى الحرب إلا إذا اعتدت عليها إيطاليا . . »

٣ — وجهة نظر تقول بتجنيب البلاد ويلات الحرب ، فإن الاحتلال البريطانى لم يسمح بأن يكون فى مصر جيش وطنى

قوى ، بل عمل الاحتلال دائماً على إضعاف مصر وتجريدها من السلاح ، وتقويض معنوياتها ، وصد الحركات الشعبية المنادية بالاستقلال والحرية ، وعليه فإن المهمة الوحيدة هى الإمعان فى السلبية والاختفاء لتفادى الكوارث وتجنب الويلات حتى يقضى فى الحرب .

وقد ظلت وجهة النظر هذه هى السياسة الرسمية للحكومة منذ توغلت الجنود الإيطالية فى الأراضى المصرية حتى انتهت معركة العلمين بفوز الإنجليز فى سنة ١٩٤٢ .

وكان قد صدر تصريح رسمى من رئيس الوزراء يوم ٢١ أبريل عام ١٩٤٢ :

« لن أعمل أو أوافق أو أسلم بجر مصر إلى الاشتراك فى الحرب ، أو تقديم جنود من أبناء هذه البلاد ، مهما كانت الظروف والأحوال » .

٤ — وجهة نظر تقول لا بد أن نحارب . إن الحرب هى فرصتنا . إن الحرب لازمة لإثبات وجودنا واستعادة حميتنا .

كان ينادى بوجهة النظر هذه شباب مصر الطموح .

إن الحرب قائمة فى مصر ، فكيف تقف مصر مسلوبة الإرادة مرغمة على أمرها ، فى حين يقرر الآخرون مصيرها ؟ كيف يداس الحمى ، ويعتدى على الكرامة ، ولا يتحرك الشعب للدفاع عن أرضه ومقدساته ؟ ! ينبغى أن نحارب ، لا من أجل الإنجليز ، ولا مساعدة لهم ؛ ولكن نحارب المعتدين ؛ فإذا

تم لنا النصر استطعنا أن نقف فى وجه الإنجليز وفى يدنا شهادة الدم المصرى المراق .

إن الحرب هى الفرصة السانحة لاستعادة معنويات الشعب وصهر معدنه وتدريبه . . فقد طال بمصر الوقت فى ظلال الاستسلام ، وهو ما عبر عنه شوقى بقوله :

إن ورد السلم من كثرته ضيعت أظفارها فيه الأسود

ويستكمل أصحاب الرأى بدخول مصر الحرب وجهة نظرهم بأنه فى حالة الهزيمة لا نخسر شيئاً فإن الاحتلال البريطانى ينتهى . وقد لا يستبدل به احتلال إيطالى . . وحتى إذا حدث هذا فإننا نكون قد تعودنا الكفاح المسلح ، وتمرسنا بالحرب ، فندخل معركة كفاح جديدة ونحن أقوى معنوية وأكثر استعداداً وأعز شرفاً . .

وإذا انتصرنا استطعنا أن نقنع العالم بأننا أمة باسلة لم نرتض الاستسلام ، وأننا اشتركنا فى صنع النصر ، ومن حقنا أن نشترك فى صنع السلم وفى تقرير مصير العالم بعد الحرب . .

. . . .

هذه كانت وجهات النظر التى تتردد ، وكان بعضها يلمع أو يخبو مع أحداث الحرب وتطوراتها ، ولكن الشعور الغالب كان ضد إنجلترا .

كان الشعب ــ من أعماقه ــ يكره الإنجليز المحتلين ويتمنى لهم الهزيمة ، أو بمعنى أصح الزوال عن أرض مصر ، وفى الوقت

نفسه كان يخشى أن يجيء احتلال جديد ، ومع هذا ارتفعت أصوات تقول : « تقدم يا روميل » . . « إلى الأمام يا روميل » ؛ وكانت هناك دعوات لأن ينتصر روميل، لا حباً فى الإيطاليين أو الألمان ولكن كراهية للإنجليز .

وكانت إنجلترا تعرف شعور الشعب وتعمل حسابه ، ولهذا كانت تضغط باستمرار على القصر والحكومة ، ووصل بها التحدى إلى أنها فرضيت يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ حكومة موالية لها ، حتى تضمن سلامة مصالحها ، ونشطت مخابراتها ، فأخذت تتابع حركات المناهضة ، وتحاول أن تتكشف اتجاهات الشباب واجتماعات رجال الفكر والسياسة .

ويروى أن أحد رجال السياسة القدامى ــ أحمد زيور ــ سئل عن رأيه فى الحالة فأجاب بفكاهة مشهورة :

« حالة إيه يا مونشير . شعب مصر ألمانى ، وملك مصر طليانى ، وحكومة مصر إنجليزية » !

وقد اعتقد الإنجليز أن فى مصر « نشاطاً وريباً » ، وأن هناك اتصالات سرية ووساطات سياسية ترمى إلى إحداث انقلاب فى مصر فى الوقت الذى يشدد فيه روميل هجومه على القوات البريطانية ، ولذلك كانت إنجلترا تشدد قبضتها على الملك ، وتضمن حكومة ضالعة معها ، وتضع الشخصيات المعروفة بعدائها فى المعتقلات ، وتفرض رقابة شديدة على الشعب ، وتضع خططها لمد القتال داخل المدن والقرى ، وفاقاً

للسياسة التى أعلنها ونستون تشرشل :

« إننا معتزمون أن نقاوم إغارة العدو على مصر ووادى النيل ، وأن نصده عنهما بنفس القوة والعزم اللذين نقاوم بهما إغارته على أرض إنجلترا نفسها » .

وقد انتهت العمليات فى الأراضى المصرية بانتصار الجيش الثامن فى العلمين أكتوبر / نوفمبر سنة ١٩٤٢ .

وكانت معركة العلمين نقطة التحول فى الحرب العالمية الثانية ، فانتقلت بعدها المبادأة إلى أيدى الحلفاء ، واستطاع الروس فى ستالينجراد أن يدمروا القوات الألمانية ، وتم فتح الجبهة الثانية فى أوربا ، واتجه الحلفاء من كل جانب إلى برلين ، وانهزمت اليابان أمام الولايات المتحدة صاحبة القنبلة الذرية . .

وبدا النصر النهائى للحلفاء قريب المنال .

. . . .

وبالنسبة لمصر عاد التساؤل . . هل تشترك مصر فى الحرب؟

أو بمعنى أصح : هل تعلن مصر الحرب على ألمانيا واليابان؟ باعتبار أن إيطاليا انسحبت من الحرب .

وقال فريق : ما معنى أن تعلن مصر الحرب بعد انتهاء الحرب ؟

وكيف تعلن مصر الحرب ، والحرب فى النزع الأخير ، فى حين أنها لم تعلن الحرب ، والحرب تغلى على أرضها وتذيقها من ويلاتها ؟

كيف لم تعلن مصر الحرب خلال « معركة مصر » ، ويطلب منها أن تعلن الحرب خلال « معركة برلين » ؟ !

وقال أصحاب هذا الرأى إن معنى إعلان مصر الحرب هو تسليم بما ترومه بريطانيا ، وإعلان لانعدام الإرادة والسيادة .

وإذا كانت الحرب فروسية وشهامة فإنها لا تكون كذلك إذا كان الخصم واقعاً على ركبتيه يلفظ آخر أنفاسه .

وقال أصحاب الرأى الآخر :

إن إعلان مصر الحرب على دولتى المحور لا يضرّ بمركز مصر ، وهو عمل من أعمال السياسة لا الحرب .

إنه إعلان عن السير فى ركب الدول المنتصرة التى ستقرر مصير الحرب ، ثم تقرر بعد ذلك مآل السلم .

إنه إعلان عن أن مصر راغبة فى الاشتراك فى أحداث العالم ووضع خطة العالم الجديد . .

. . . .

وفى جلسة مجلس النواب المصرى ، يوم الاثنين ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٥ ، ألقى رئيس الوزراء بياناً عن إعلان مصر الحرب ، ذكر فيه أن وزير خارجية بريطانيا أبلغه أن مؤتمر القرم قرر عقد مؤتمر دولى فى مدينة سان فرانسسكو فى أبريل عام ١٩٤٥ ، وقرر ألا يشترك فى هذا المؤتمر إلا الدول التى تكون قد أعلنت الحرب على المحور قبل أول مارس ، وأن إعلان الحرب يتيح لهذه الدول — فور اشتراكها فى هذا المؤتمر — أن تكون من الأعضاء

المؤسسين للهيئة الدولية المزمع تكوينها بعد الحرب ، لكى تخلف هيئة الأمم .

وقال رئيس الوزراء إنه استأنس بآراء الكثير من ذوى الرأى والشأن والزعماء ورؤساء تحرير الصحف وزعماء المعارضة فى المجلسين ، فكان رأى الأغلبية الكبرى — التى تكاد تكون إجماعاً — هو ضرورة دخول مصر فى الحرب .

وكان الرأى أن تصدر الحكومة « مرسوماً ملكيًّا » باعتبار حالة الحرب قائمة بين مصر وحكومة الريخ وإمبراطورية اليابان ، وبالرغم من أن هذه الحرب حرب دفاعية لاتقتضى دستوريًّا موافقة البرلمان إلا أن الحكومة رأت أن ترجع إلى البرلمان قبل صدور القرار .

وكان السؤال الذى يتردد هو :

ما الذى تفيده مصر من إعلان الحرب ؟

وكان الرأى هو أن طلب مصر دخول مؤتمر الصلح — حتى تستطيع الدفاع عن مصالحها وحقوقها — يقتضى إعلان الحرب ، وكان السفير البريطانى قد حمل إلى رئيس الوزراء أن « الحكومة الإنجليزية ستبذل خير معونتها ليتحقق لمصر أن تمثل على قدم المساواة فى جميع مفاوضات الصلح التى تمس مصالحها مباشرة .

« وزيادة على ذلك فإن حكومة جلالة الملك لن تتدخل فى أثناء هذه المفاوضات فى مناقشة أى شىء يمس مصالح مصر المباشرة دون تبادل الرأى مع الحكومة المصرية » .

وكان هذا التصريح — فى حينه وبالنسبة لظروف ذلك العهد — يعتبر أملا كبيراً بل كسباً مفرحاً .

وختم رئيس الوزراء بيانه بقوله للنواب :

إننا لا نجنى شيئاً من بقائنا على انفراد وفى عزلة عن سائر الدول ، بل الخير كل الخير فى التعاون الدولى والاشتراك فى المؤتمرات الدولية . هذه هى السياسة الإيجابية المفيدة لمصر المحققة لأمانيها القومية ، أما سياسة العزلة والانفراد فسياسة سلبية عقيمة ، لاخير فيها لمصر على الإطلاق ، إن لم يكن فيها الضرر كل الضرر لآمالنا ومطامعنا فى الحياة الرفيعة الكريمة .

إنى واثق كل الوثوق من قراركم فى هذا الموضوع ، وآمل أن يكون إجماعياً أو شبه إجماعى . ولا يمكن أن تقول مصر إنها تعرف حقوقها و واجباتها وتقدر مصالحها ، ثم لا تتأثر إلا بمؤثرات ترجع فى كثير من الأحيان إلى استخدام كل الظروف لتحقيق أدنى الشهوات وهى شهوة الوصول إلى الحكم .

وذكرت مضبطة مجلس النواب أن النواب استقبلوا بيان رئيس الوزراء بإعلان مصر الحرب على ألمانيا واليابان « بتصفيق حاد متصل » .

وبعد دقائق قليلة سمع دوىّ طلق نارى فى دار البرلمان . . .
لقد لقى رئيس وزراء مصر مصرعه عقب إعلانه الحرب .
وفى ٢٦ فبراير صدر مرسوم من مادة وحيدة بما هو آت :
« تعتبر المملكة المصـ ـية فى حالة حرب مع الرايخ الألمانى

وإمبراطورية اليابان اعتباراً من اليوم ».

وعندما أحرز الحلفاء النصر النهائى فى برلين ، أرسل مجلس النواب المصرى برقية لمجلس العموم البريطانى تقول :

« باسم مجلس النواب المصرى يسعدنى أن أبعث إليكم وإلى مجلس العموم بأخلص التهنئة وأصدق الإعجاب ، التهنئة على النصر المؤزر الحاسم الذى نلتموه على العدو المشترك ألمانيا ، والإعجاب بأنكم كسبتم الحرب بأخلاقكم وعدالة قضيتكم قبل أن تكسبوها بأسلحتكم وقوتكم ، فصفاتكم من الشجاعة والثبات والمثابرة ، حتى فى أحلك الأوقات ظلاماً وأشدها حرجاً ، وقضيتكم العادلة القائمة على رعاية الحريات واحترام التعهدات ، جعلتكم أقوى شكيمة من العدو المسلح المتغطرس ، وأكسبتكم عطف العالم وتأييده وتقديره ، إذ جددتم فيه إيمانه القديم بأن الحق والحرية واستقلال الأمم كبيرها وصغيرها من عناصر الحياة الأساسية التى قد تهزم حيناً ولكنها تتغلب دائماً آخر الأمر.

فلكم تهنئتنا وإعجابنا وصداقتنا الدائمة » .

وجاءه الرد التالى :

« أرجو أن تتقبلوا خالص عبارات الشكر منى ومن جميع أعضاء مجلس العموم لرسالتكم البرقية ، المعبرة عن تهانئكم الرقيقة التى وقعت من نفوسنا أجمل وقع ونالت أكمل تقدير .

وأرجو أن تبلغوا مجلس النواب تحياتنا القلبية » .

. . . .

وعقب « النائب إسماعيل صدقى » على إعلان البرقيات المتبادلة بقوله :

انتهت الحرب كما كان متوقعاً لمصلحة الديموقراطية ، وإذا كانت الجهود الحربية لا تزال تبذل فى بعض الميادين النائية فما من شك فى المصير الذى يحتمه التفوق الهائل القوى عند حلفائنا وأصدقائنا مما يتضافر فى خدمته علم بارز وإرادة قوية ووطنية حارة .

ومصر لا تريد شيئاً أكثر من أن تعامل وفقاً لهذه المبادئ ؛ وإذا كان استحقاقها لهذه المعاملة هو النتيجة اللازمة لحضارتها المتدرجة فى الصعود ، ولمجدها التاريخى الذى لا يبارى ، فكم يكون أبلغ وألزم قياساً على الخدمات وعلى التضحيات التى بذلتها بسخاء فى سبيل نصرة القضية المشتركة مما تردد ذكره فى كل المناسبات ، وأصبح من الحقائق المسلم بها لدى الجميع .

إن مبادئ الحرية هذه هى التى حفزت مصر إلى الانضمام لميثاق الأطلنطى والتمسك بأحكامه ، حتى فى سان فرانسسكو ، حيث طلب مندوبنا أن يكون الميثاق هو الأساس الذى يقام عليه صرح السلام المرتقب. والواقع أنه لن يتحقق سلام إلا حيث تشعر كل أمة أن لها الحق فى أن تحيا حياة عزة وكرامة وفى أمان من العدوان .

ومن أجل ذلك أقول إنه قد آن الأوان — وقد زال كابوس المشاغل الحربية فى الناحية التى تتصل بمصر — أن تتفاهم مصر

وحليفتها على تلك المسائل .

ولا يخفى أن من حسن الطالع أن القيود التى كبل بها استقلالنا لم تكن من جانب الحليفة إلا احتياطاً لطوارئ العدوان. أما وقد اتخذت الدول بهذا الشأن ما يكفل إلى أبد الآبدين القضاء على كل عبث بالسلام فمن الهين أن يتم التفاهم ، وأن تحصل مصر على حقها الكامل فى الحرية وفى الاستقلال غير المشوب بأى قيد من القيود ، وأن يكفل لها ذلك فى كامل أرجائها.

. . . .

انتهت الحرب إذن وتحقق النصر ، ولكن لم يتحقق الوعد .

ذلك أن الحليفة التى احترفت بذل الوعود ونقض العهود استمرت تمارس لعبتها المفضلة .

وأخذت مصر تحاول ، والحليفة تحاور ، ومرت عدة سنوات من الأمل والرجاء والجهاد والعناء ، وبدأت المقاومة الشعبية ، وأخذ شباب مصر يزمجر ، وانطلقت الثورة ، وقال جمال عبد الناصر :

على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل . . .

وقد كان ، وانتهى الاستعمار البريطانى لمصر . بإرادة مصر وحققت مصر – بثورتها – حريتها وإرادتها .

القائدان فى العلمين

مونتجمرى

برنارد لو مونتجمرى : فيكونت أوف علمين
١٨٨٧
ضابط مشاة اشتهر باستقامته وعسكريته وإصراره المستمر على اللياقة البدنية والشباب والكفاية للقادة .
قاد فرقة فى فرنسا فى فاتحة الحرب العالمية الثانية .
قاد قوات الجنوب الشرقى فى إنجلترا .
تولى قيادة الجيش الثامن فى شمال أفريقيا فى أغسطس عام ١٩٤٢ .
أعاد ثقة الجنود فى القيادة ، وقام بتدريب واسع المدى وراء ميدان العمليات .
انتصر على روميل فى العلمين — أكتوبر / نوفمبر عام ١٩٤٢ وأخلى شمال أفريقيا من القوات الإيطالية والألمانية .
عين مساعداً للجنرال أيزنهاور فى عمليات غزو أوربا ، يوليو عام ١٩٤٤ .
قاد الجيش ٢١ (بريطانى / كندى) فى عمليات استسلام ألمانيا (مايو عام ١٩٤٥) .
عين رئيساً لأركان حرب الإمبراطورية (٤٦—١٩٤٧) .
عين رئيساً للجنة القيادية العليا لأوربا الغربية (٤٨—١٩٥١) .
عين نائباً للقائد الأعلى لقوات الحلفاء فى أوربا (٥١ — ١٩٥٨) .
ذاعت محاضراته عن « القيادة العسكرية » ومذكراته « مذكرات مونتجمرى » .

روميل

أروين روميل : فيلد مارشال ألمانى
١٨٩١ — ١٩٤٤ .
ضابط مشاة تحول إلى قيادة قوات مدرعة ، واشتهر بأنه مدرب قدير .
قائد حرس هتلر سنة ١٩٣٩
قائد فرقة دبابات — بانزر — قام بعمليات حاسمة فى فرنسا ما يو / يونيو عام ١٩٤٠ انتهت باستسلام فرنسا .
قائد قوات المحور فى شمال أفريقيا عام ١٩٤٢ .
« ثعلب الصحراء » الذى كان اسمه يثير فزع القوات الإنجليزية .
وصفه ونستون تشرشل بأنه قائد ماهر جرىء . وقال عنه أوكنلك : احترمته لشجاعته وقدرته على كل موقف .
تفادى الكارثة بعد هزيمة العلمين وسحب قواته إلى تونس .
عين مساعداً لرونشتد فى مواجهة الجبهة الثانية .
جرح فى غارة جوية يوم ١٧ يوليو عام ١٩٤٤
اشترك فى مؤامرة « التخلص من هتلر » وكان مقدراً فى حالة نجاح المؤامرة أن يصبح روميل رئيساً لألمانيا .
أجبر على تناول السم عقب كشف المؤامرة ومات يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٤٤ .
ألف كتاب هجوم المشاة (١٩٣٧) وكتاب « حرب بلا حقد » الذى اشتهر باسم « مذكرات روميل » .



فيلد مارشال أوكنلك

بين روميل ومونتجمرى

إلى أى مدى تأثرت معركة العلمين بشخصيتى القائدين؟

« إن هناك خطراً حقيقياً على الجنود من اسم روميل . . . أناشدكم أن تستخدموا كل الوسائل لتبديد الوهم الذى استولى على عقول الجنود » .

أوكنلك

لم يلق قائدان غريمان فى الحرب العالمية الثانية مثل الشهرة التى لقيها بطلا معركة العلمين : مونتجمرى وروميل .

ولم يقال من هذه الشهرة أن أحدهما فاز على الآخر ، فكلاهما أحدث تأثيراً كبيراً فى نفسية جنوده ، وفى سير العمليات ؛ وكلاهما أثبت تفوقه وامتيازه ، ووضع قدمه ثابتة فى ساحة التاريخ.

وقد جمعتهما « العلمين » ، كما جمعت من قبلهما « واترلو » بين نابليون وولنجتون ، فلم تقال هزيمة نابليون من شأنه ، بل يمكن القول بأن نابليون أشهر من ولنجتون ، بل هو أشهر عبقرية عسكرية فى التاريخ كله .

روميل

ولنبدأ الحديث عن روميل — لأنه قضى وأصبح ذكرى . .
والحديث عن الفيلد مارشال أورين روميل ينبغي أن يقدم له برأى خصومه فيه ، فالحكم ما شهدت به الأعداء .
كان روميل — على حد قول الفيلد مارشال ويفل — ظاهرة غير عادية ، وفلتة نادرة فى التاريخ العسكرى .
وقد وصفه خصمه العنيد الجنرال أوكنلك بقوله : إن روميل كان قائداً فوق مستوى القادة .
وقال عنه الناقد الحربى الثقة كابتن ليدل هارت : لقد كان روميل عبقرية عسكرية ، وليس يبلغ مبلغه قائد آخر .
كان الجنرال أوكنلك — خلال معارك شمال أفريقيا — يكافح لتثبيت قلوب جنود الجيش الثامن الذين روّعهم اسم روميل وحرمهم النوم ، وأخذ أوكنلك يستحث قواده ويصدر أوامره الرسمية بمقاومة الذعر والرهبة التى حلت بالجنود :
« إن هناك خطراً حقيقياً ، فصاحبنا روميل أصبح ساحراً لجنودنا يتحدثون عنه ويتندرون بقدرته ومعجزاته . إن روميل ليس إنساناً فوق البشر ، وإن كان بلا ريب ممتازاً وقادراً . . .
إنى أناشدكم أن تستخدموا كل الوسائل لتبدّدوا هذه الأفكار التى استولت على عقول الجنود ، فجعلتهم ينظرون إلى روميل

على أنه أكثر من قائد ألمانى » .

وقد سجل أوكنلك – كقائد وإنسان – رأيه التاريخى فى روميل فقال :

لقد احترمته لشجاعته ، إذ كان قادراً على عمل كل شىء ، وكانت حروبه تمتاز بضروب الشجاعة والفروسية التى تميزت بها العصور الوسطى ، ولم يعد لها أثر فى أيامنا ، وهذا ما جعله يكتسب احترام القادة البريطانيين ، وينال محبة أعدائه قبل أعوانه .

أول الطريق :

ولد أروين روميل فى سنة ١٨٩١ ، وأخذ طريقه إلى المعسكر فى سن التاسعة عشرة ، وأصبح ضابط مشاة فى سنة ١٩١٢ ، وعرف عنه ميله إلى الضبط والربط ، وتدريب المستجدين ، وشغفه بالبحث فى التنظيمات العسكرية فى عمق وروية ؛ كما كان موضع تقدير زملائه باحترامه التقاليد العسكرية ، وتميزه بالصفات الحسنة ، فلا تدخين ، ولا خمر ، ولا سهرات ، ولا نزوات .

وقد وصفت بعض المراجع « الملازم روميل » بأنه كان شجاعاً إلى أبعد الحدود ، وأنه كان « متحفزاً للهجوم ولا يعرف التعب » . وقد فاز بالصليب الحديدى فى وقعة عرضته فيها

شجاعته لرصاص العدو ، فلما خرج من المستشفى بعد ثلاثة أشهر تعرض بفصيلته لضغط كتيبة مشاة أطبقت عليه من كل ناحية ، ولكنه قاتلها ، ثم أفلت منها بعملية انسحاب شائقة تقلد على أثرها وسام الصليب الحديدى من الدرجة الأولى .

ولما نقل الملازم روميل إلى كتيبة ورتبرج الجبلية حارب فى رومانيا وإيطاليا ، حيث منح وسام الجدارة الألمانى — الذى يقابل صليب فكتوريا — لما أبداه من براعة فى القيادة ، وحذق فيما أقدم عليه من الأعمال الحربية .

ومن الحوادث المشهورة فى ذلك الحين قيامه بعملية تجاه كابورنيو فى أكتوبر عام ١٩١٧ ، فلما تم له تحقيق الغرض كان قد مشى على قدميه خمسين ساعة متوالية ، وصعد سبعة آلاف قدم ، وأسر مائة وخمسين ضابطاً وتسعة آلاف جندى ، واستولى على واحد وثمانين مدفعاً .

وأصبح أروين روميل « يوزباشى » فى سنة ١٩١٨ ، ثم صار معلماً بمدرسة المشاة فى درسدن خلال عامى ٢٩ و ١٩٣٠ ، حيث عكف على وضع كتابه المشهور الذى يعتبر حتى اليوم مرجعاً ممتازاً فى « تكتيكات المشاة الصغرى » ، فقد وضعه « أستاذ فى فنه » .



فيلد مارشال سير أرشيبالد ويڤل

قائد حرس هتلر :

وقد اختير روميل قائداً لحرس هتلر ، وكان رجلا مطاوعاً على الولاء، مقدساً التقاليد العسكرية ، فواتته الفرصة لدراسات عليا ، وبخاصة فى فاتحة الحرب العالمية الثانية، فكشف خطط الحرب الحديثة، ومرت تحت عينيه جيوش ألمانيا الجرارة فى غزو بولندا، وأدرك خصائص الحرب الحديثة وأهمها التعاون بين قوات الجو والبر ، وأهمية القوات المدرعة ، وبخاصة إذا استخدمت فى حشود كبيرة ، كذلك ضرب مؤخرة العدو ، فلما عين قائداً للفرقة السابعة المدرعة، أو « فرقة الشبح » — كما أطلق عليها فيما بعد — كان قد أدرك كل ما هو مطلوب منه، وأخذ يطبق نظرياته التكتيكية ويضع أفكاره وملاحظاته موضع التنفيذ .

قيادة الفرقة المدرعة :

دفع روميل فرقته المدرعة إلى الميدان ، فأحرزت النصر فى معركة بعد أخرى. ومن المأثور عنه غزوته الموفقة فى شربورج ، وعلى إثرها سلمت فرنسا .

وقد أحصيت غنائم الفرقة السابعة المدرعة « البانزر» خلال المعارك فى ستة أسابيع فإذا هى :

٦٨٢ قتيلا — ١٦٤٦ جريحاً — ٢٩٠ مفقوداً — ٤٢ دبابة .
أما خسائرها فكانت :

٩٧٦٤٨ أسيراً — ٢٧٧ مدفع ميدان — ٦٤ مدفع دبابات — ٤٥٨ دبابة وعربة مصفحة — ٤ آلاف لورى — ١٥٠٠ سيارة — ٢٠٠ عربة جر .

وكتب إلى زوجته يقول :

« قامت الفرقة بهجوم على شربورج ، واستولت على قلاع منيعة برغم قوة الدفاع عنها . لقد صادفت لحظات حرجة للغاية ، إذ كان العدو يفوقنا فى العدة والعدد نحو عشرين مرة أو تزيد ، وكان لديهم فضلا عن ذلك ما بين عشرين وخمسة وثلاثين حصناً مجهزاً وبطاريات عديدة ، ومع هذا كله استطعنا فى قوة وسرعة أن ننفذ أمر الفوهرر الخاص بالاستيلاء على شربورج بأسرع ما يمكن » .

فى شمال أفريقيا :

فى فبراير عام ١٩٤١ قطع روميل إجازته القصيرة حيث استدعى لمقابلة الفيلد مارشال براوشتش الذى أنهى إليه خبر تعيينه فى المنصب الجديد الذى وضعه فيه هتلر ، وهو « قائد قوات الفيلق الألمانى فى شمال أفريقيا » .

وكانت أحوال الإيطاليين فى ليبيا تسير من سيئ إلى أسوأ ،

فأرسل هتلر فرقتين لمعاونتهم ، إحداهما خفيفة والأخرى من فرق البانزر ، وكانت آخر الأخبار من الميدان الأفريقى تقول إن المارشال ويفل قد استولى على بنغازى ، بعد أن دمر الفرقة المدرعة الإيطالية ، وأخذ يستعد لدخول طرابلس .

ولهذا كان أول ما تبادر للذهن روميل عند التقائه بالجنرال كيسلرنج – قائد القوات الجوية الألمانية فى صقلية – أن طلب إليه ضرب ميناء بنغازى فى الليل ، ثم مهاجمة القوات البريطانية .

ومن عجب أن روميل علم أن الإيطاليين لم يطلبوا قذف بنغازى بقنابل الطائرات لسبب خطير . . . وهو أن عدداً من الضباط الإيطاليين والرجال ذوى الشأن يملكون بيوتاً فيها ! وقد استأذنت القيادة الجوية قيادة هتلر فى ضرب بنغازى ، فجاءت الموافقة فى الحال . . . واندفعت الطائرات الألمانية تضرب بنغازى وقوات البريطانيين المتقدمة ، وتدك مواصلاتهم وخطوط تموينهم .

وفى يوم ١٢ فبراير هبطت طائرة روميل فى طرابلس ، فى حين غادر المارشال جرازيانى قيادته .

وقد وجد روميل متاعب أخرى فى انتظاره ، متاعب ليست من أعدائه ولكن من حلفائه . فقد واجهته أخبار انسحاب الإيطاليين وتسليمهم أسلحتهم ومؤنهم وهبوط معنوياتهم إلى حد أن ضباطهم أخذوا فى إعداد حقائبهم أملا فى العودة إلى إيطاليا .

وقد فكر روميل بسرعة وأصدر أمره اليومى : « لا خطوة بعد

الآن إلى الوراء » ! وقدر أن البريطانيين لا يستطيعون التقدم ما دامت هناك مقاومة . وفى فترة الانتظار الحرجة هذه أخذ روميل يحشد قواته ، ويضع خططه ، ويوطد صلته بالقادة الإيطاليين !

وبدأ زحف قوات روميل ، فرأى البريطانيين شيئاً جديداً ، خطيراً ، وتقدمت الدبابات الألمانية تأخذ طريقها عجباً ، تظللها سحابة من الطائرات . . .

وتحقق رأى روميل « أن النصر دائماً للجانب الأقوى » .

وانسحب الإنجليز بعد قتال عنيف فقدوا فيه ألفى أسير ، بينهم ثلاثة من القادة العظام : أكنور ، ونيوثم ، وجامبير . . .

ولم تفطن القيادة الإنجليزية إلى غرض روميل ، ولم يجل بتفكيرها أنه يجرؤ على قطع هذه الصحراء الشاسعة مبتعداً عن قاعدته . ففاجأتها أساليب روميل ، وبعثرت خططها ، وقلبت نظرياتها ، فكان الارتداد السريع .

واستطاع روميل أن يطوى الصحراء فى أسبوع واحد من بنغازى إلى السلوم !

بين شقى الرحى :

عندما انتصر روميل فى شمال أفريقيا لم يكن أكثر من عدوه عدداً ولا عدة ، باعتراف تشرشل نفسه الذى صرح « أن القوات

الإنجليزية كانت متفوقة في عدد الدبابات بنسبة ٧ إلى ٥ ، ومتفوقة أيضاً في المدافع بنسبة ٨ إلى ٥ ، ومتفوقة في الجو !

وكان روميل يحارب بعيداً عن قاعدته ، فتعرضت مواصلاته لهجمات الطائرات البريطانية التي كانت مصدر خطر كبير ، في الوقت الذي شغلت فيه الطائرات الألمانية بميادين أخرى .

ولم يلق روميل من حلفائه الإيطاليين المعاونة الجادة في الوقت الخطير الذي كانت تعانيه قواته وهي تكافح بشق الأنفس لدفع العدو المتفوق في كل شيء .

ولم تستطع القيادة الألمانية العليا أن تستمع إلى طلبات روميل المتكررة في معاونته ، إذ كان الميدان الروسي شغل القيادة الألمانية الشاغل ، وكان الموقف خطيراً ، فحجب المسرح الأفريقي عن عيون المسئولين .

وكتب هتلر إلى الفيلد مارشال روميل :

في مثل الموقف الذي وجدت نفسك فيه لا يمكن أن يكون هناك أي تفكير إلا في الصمود ، وفي دفع كل مدفع وكل رجل إلى المعركة . . إن العدو — برغم تفوقه — لابد أنه يعاني نهاية العناء . . وإنها ليست أول مرة في التاريخ تستطيع قوة مناضلة أن تنتصر على حشود كبيرة . .

أما بالنسبة لقواتك فليس أمامك إلا أن تبصرهم بأمر واحد : النصر أو الموت .

وبدأت معركة العلمين . . وأصبح روميل بين شقي الرحى .

وفتح التاريخ إحدى صفحاته الخالدة ليسجل لأحد القادة العظام فى جميع العصور ما يفعله فى مثل هذا الموقف الشاذ .

كان روميل يحارب فى عدة جبهات :

١ ـ القيادة العليا الألمانية التى لا تمده بحاجياته الحيوية .

٢ ـ القيادة الإيطالية العاجزة عن معاونته .

٣ ـ القوات الجوية المعادية التى تدمر خطوط مواصلاته ومصادر تموينه .

٤ ـ التفوق العددى الهائل لخصومه فى الرجال والطائرات والأسلحة وكافة المعدات .

كانت نتيجة معركة العلمين معروفة « سلفاً » . . ولكن كان معروفاً أيضاً أن القوات الألمانية لن تتلقى هزيمة نهائية ويقضى عليها قضاء مبرماً .

أما عن الشق الأول من هذه النتيجة فلم يكن فى وسع أى قائد فى الوجود منع الهزيمة .

وأما عن الشق الثانى ، فقد استطاع القائد العبقرى أن يمنع الدمار ، ويتفادى الكارثة ، ويمرق بجيشه فى الوقت المناسب بأقل خسائر ممكنة .

لقد كانت معركة ذات جانب واحد ، فلما انهزمت قوات المحور كان التاريخ قد سجل أن روميل هو أعظم قائد فى الحرب العالمية الثانية .

ومن مذكرات روميل عن تلك الأيام الرهيبة :

« عزيزتى لو :

إن المعركة تشتد وطأتها علينا ، ولقد دفعنا حشود العدو عن مواقعنا ، إننى أبذل جهداً بالغاً لإنقاذ الجيش ، ولست أدرى هل أنجح فى ذلك ؟ . . قضيت الليل مستلقياً مفتوح العينين ، أعمل فكرى فى طريقة لإنقاذ قواتى . . إننا نواجه أياماً فى غاية السوء . . بل أسوأ ما يمكن أن يمر بإنسان .

إن القتلى أسعد منا ، فقد انتهى كل شىء بالنسبة لهم .

إننى أفكر فيك بكل حب وتقدير . . ومن يدرى ، فقد نلتقى مرة أخرى » .

روميل

الرتب والأوسمة :

كان روميل فى جميع أدوار حياته جندياً لم يستهوه شىء غير الجندية ، ولم يعرف عن الجندية غير خصائصها وحدودها ، فلم تكن عنده سوى بذل الجهد لتحقيق النصر أو دفع الهزيمة ، ولم يخطر بباله قط أن الجناية مغنم ، فعزف عن مظاهرها وأبهتها ، واحتفظ بالهيبة والكرامة .

وقد خبر روميل الميدان مبكراً ، وأحرز النصر كثيراً ، ونال الأوسمة والرتب بلا رغبة منه أو اهتمام ، حتى إنه حين أنعم عليه بأعظم الرتب « فيلد مارشال » كان مشغولا عنها بأحداث القتال ،

فلم يغير علامات الكتف ، وظل على حاله بعلامة الجنرال ، حتى قدم له المارشال كسلرنج علامة من علامات رتبته .

وعندما استقبله هتلر فى برلين وسلمه عصا المارشالية بعث إلى زوجته يقول :

« كنت أفضل لو كان أعطانى فرقة أخرى بدلا من رتبة الفيلد مارشال هذه » .

المثل الأعلى :

كان روميل يعتقد أن المثل هو خير معلم .

وكان يطلب من ضباطه أن يكونوا قدوة حسنة لجنودهم .

ومما يذكر له أنه كان لا يترك مناسبة دون أن يناشد فيها الضباط أن يعتنوا بأنفسهم فى الخاص والعام من الأمور .

ويتضح ذلك جليا من الخطاب الذى ألقاه — وهو قائد المدرسة الحربية — فى الخريجين وقد جاء فيه :

- كن نموذجاً لرجالك ، فى عملك ، وفى حياتك الخاصة .
- كن مرناً ورائقاً ، وعلم معاونيك أن يكونوا كذلك .
- حاذر من النزق والحدة وانفلات الأعصاب وارتفاع الصوت .

كان شليفن يقول : « إن القائد العام هو عقل الجيش » ، أما روميل فيقول :

« إن الحرب الحديثة قد اتسع نطاقها ، وتعددت ميادين

نشاطها ، وزادت الاختصاصات ، مما يقتضى أن يكون هناك كثرة من الضباط — وبخاصة فى مراكز أركان الحرب — لهم مثل صفات القائد العام وإحاطته وعزيمته ؛ لكى تعمل جميع الإدارات بنجاح ، سواء فى ميدان التكتيك ، أو فى ساحات الإمداد والتموين » .

وروميل صاحب نظريات حربية صدرت عن عقل كبير وفكر مجرب ، فقد خرج من الحربين العالميتين بدروس عامة هامة ، منها :

١ — أهمية تعاون الطائرات والقوات البرية تعاوناً يجعلهما قوة واحدة .
٢ — أهمية هجوم القوات المدرعة بقوة متجمعة كبرى .
٣ — ضرورة التفكير السريع والانقضاض السريع .
٤ — وضع الخطط على أسس واقعية لا تدخلها الأوهام .
٥ — ضرورة التدريب الجيد العملى الواقعى قبل المعركة .
٦ — أهمية الشدة والصبر والتفاؤل .
٧ — الجانب الذى يملك المدفع الأشد قوة يكون لديه السلاح الغالب .
٨ — عدم التقيد بالروتين أو أقوال الآخرين وخططهم .

ويبلغ روميل الغاية عندما يجرى قلمه بالسهل الممتنع ، فيروى الحقيقة الحربية التاريخية :

إن الجانب الأقوى هو الذى يحرز النصر .

الفيلد مارشال مونتجمرى

● القائد الجيد هو الذى يعرف غرضه جيداً ..
● إن الجنود – كل الجنود – يحبون القائد المنتصر.

مونتجمرى

مرت خمس وعشرون سنة على معركة العلمين دون أن تسدل ستائر النسيان على المعركة وقائديها العظيمين : روميل ومونتجمرى .

لقد ثبتت الأسماء الثلاثة : العلمين ، ومونتجمرى ، وروميل فى أذهان المعاصرين ، وفى سجل التاريخ .

وقد طلب المارشال مونتجمرى زيارة أرض المعركة ، ونشرت جريدة الأهرام – فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٦ – ثلاث رسائل ممتعة متبادلة بين الرئيس جمال عبد الناصر والمارشال مونتجمرى ، ووصفت « الأهرام » مونتجمرى بأنه « أبرز قواد الحرب العالمية الثانية ، والقائد الذائع الصيت لمعركة العلمين » .

طلب المارشال مونتجمرى فى رسالة أولى إلى الرئيس أن يسمح له ولبعض رفاقه بزيارة أرض معركة العلمين فى مناسبة مرور خمس وعشرين سنة عليها ، وكان مونتجمرى – على ما يبدو – غير واثق من إمكان حصوله على هذا الإذن للقيام

بهذه الزيارة ، فى مناسبتها التاريخية ، وذلك بسبب عدم وجود علاقات سياسية بين الجمهورية العربية المتحدة وبريطانيا ؛

وتلقى مونتجمرى رسالة من الرئيس عبد الناصر يدعوه ورفاقه إلى أن يكونوا ضيوفاً على الجمهورية العربية المتحدة فى هذه الزيارة .

وقال الرئيس عبد الناصر فى رسالته للمارشال مونتجمرى :

« إن كثيرين هنا يقدرون الأهمية التاريخية لمعركة العلمين ، ولدورك الممتاز فى قيادتها ، والآثار البعيدة التى ترتبت على النصر فيها » .

. . . . . .

وإذا كان اسم مونتجمرى قد ذاع وملأ الأسماع بسبب انتصاره فى معركة العلمين فإن تاريخ هذا الجندى الكبير – الحافل بعلامات البطولة – يضعه فى قائمة كبار القادة فى جميع الأزمان ، كما أن ما أثر عنه من خلال طيبة وثقافة واسعة قد أهله لمكانة مرموقة واحترام عام .

وقد عرف عن مونتجمرى أنه لا يدخن ولا يشرب الخمر ، وأنه يؤمن الإيمان كله بالتمرينات الرياضية ، وينام مبكراً ، كما عرف بنشاطه العظيم فى العمل ، وبمضاء عزمه ، وأنه يأخذ الأمور كلها – خاصها وعامها – مأخذاً جاداً .

جاء برنارد لو مونتجمرى إلى الحياة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٧ ، وهو ابن الأسقف هـ . هـ . مونتجمرى ، من أصل إيرلندى ،

ودرس فى مدرسة سانت بول ، ثم الكلية الحربية فى ساندهرست ، وخدم بتفوق فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وعرف كمدرب للجنود من الدرجة الأولى بسبب إصراره المستمر على اللياقة البدنية والشباب والكفاية للقادة .

وفى الحرب العالمية الثانية تولى مونتجمرى قيادة فرقة فى فرنسا ، ثم عين قائداً لقيادة الجنوب الشرقى فى إنجلترا .

ولما ولى قيادة الجيش الثامن البريطانى فى شمال إفريقيا — فى أغسطس عام ١٩٤٢ — أعاد الثقة للقوات المهتزة نفسياً ، وبدأ سلسلة من العمليات الناجحة ، ووجه عنايته للتدريب وتوضيح التعليمات للضباط والجنود وتعاون الطيران مع الجيش والاحتفاظ باحتياطى وتركيز النيران ، وبهذا البرنامج استطاع أن يهزم روميل ، ويقتلع القوات الألمانية والإيطالية من شمال إفريقيا .

وقد جعل مونتجمرى من نفسه إحدى الشخصيات الذائعة الصيت فى زمانه وفى سجل التاريخ الحربى ، وكانت آراؤه فى الاستراتيجية والتنظيم الحربى موضع اهتمام .

وقد وضع مونتجمرى نظرياته وخبراته فى محاضرة عن « القيادة الحربية » ألقاها فى جامعة سانت أندروز فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٤٥ جاء فيها :

كنت خلال الحرب أحاول أن أضع أفكارى فى بوتقة التجارب ، فوجدت أنه لكى تقود جيشاً يجب عليك بادئ ذى

بدء أن تكون واسع العلم بالطبيعة البشرية ، لأن هذه هى المادة الأساسية التى ينبغى على كل قائد أن يسبر غورها ، ويصل إلى أعماقها . . فإذا أنت أهملت العامل الإنسانى فلن تكون قائداً ناجحاً .

إن الصلة الشخصية بين القائد وجنوده ، كانت – ولا تزال – أحد العوامل الرئيسية المؤدية إلى النصر ، فإذا توافر للقائد ثقة جنوده الكاملة وتقديرهم ، فليس هناك شىء لا يستطيع أن يناله ، أما إذا أضاع القائد ثقة جنوده به فقد كتب على نفسه الخسران المبين .

ولنبحث الآن الأسس التى تقوم عليها مقدرة فرد على قيادة الآخرين ، وقبل ذلك ينبغى أن نعرف ما المقصود بالقيادة .

إننى أقدم إليكم تعريف القيادة بأنها : التصميم على العمل بالروح التى توحى بثقة الآخرين .

وأنا أرى أن قياس مقدرة الشخص على القيادة يعرف بعاملين :

الأول : التصميم على مواجهة الرجال والحوادث التى تحيط به ، والقدرة على تجميع نفسه ورجاله بأقصى قواهم إلى غرض محدد دون أن يحوله شىء عن هدفه .

الثانى : قوة خلقه وشخصيته التى تجعل رجاله يضعون ثقتهم فيه ، ومقدرته على قيادتهم للنصر .

وقد كان هناك كثيرون ذوو قدرة عظيمة على كسب ثقة رجالهم ، وإنى أختار منهم ثلاثة تاريخيين لنرى كيف

استطاع هؤلاء أن يكونوا قادة ، وكيف قادوا رجالهم ، ولماذا نجحوا أو أخفقوا ؟

موسى :

وسأبدأ « بموسى » . . .

كان موسى قد فات سن الشباب عندما دعى لقيادة بنى إسرائيل من أرض مصر ، فكانت مهمته ضخمة ، إذ كانوا مستضعفين فى مصر مدى أربعة قرون ! وعلى الرغم من أن الجو لم يكن مناسباً لهم ، فضلوا الإقامة حيث العيش الرغيد فى الدلتا ، ولم يقدموا على ترك هذه الأرض الطيبة ، لأن الصحراء كانت تحيط بهم . . .

ولهذا كانت مهمة موسى جد عسيرة فى حمل القوم على مبارحة مصر إلى الصحراء الجدباء حيث يعيشون فى كنف المشقة والعناء ، الأمر الذى يدل على أنه كان قائداً فذاً ورائداً مطاعاً .

وليس هناك شك فى أن موسى كان قديراً ، فقد قاد بنى إسرائيل من مصر ، وهم فى حالة ميئوس منها من ناحية الصلاحية للحرب ، إذ كانوا أذلاء متذمرين ، فشرع يهذبهم ويدربهم .

ويبدو أن موسى قضى ببقاء بنى إسرائيل اربعين عاماً فى

الصحراء ، قاصداً بهذا أن يمرنهم على احتمال المشقة ، وفى هذه السنوات الأربعين استطاع أن يؤهلهم للقتال ، حتى إذا وصلو إلى مرتبة عالية كان لهم أن يغزوا أرضاً جديدة ويتمتعوا بخيراتها .

وكان موسى قاضياً حكيماً ، فيما كان يصح ولا يصح من أفعال بنى إسرائيل .

وكان لديه رقم قياسى فى النجاح العسكرى ، ونظرة عميقة فى الطبيعة البشرية تؤهله لكسب ثقة جنوده ، وأن يحرز لهم النصر . وفى الحقيقة أن خير وسيلة تجعل الجنود تؤمن بقائدها هى : النصر . وما دام القائد منتصراً فسيتبعه جنوده أينما سار .

كرمويل :

أما القائد الثانى الذى اخترته فهو : كرمويل .

وهو الآخر دخل معمعان الحرب قائداً بعد أن جاوز الأربعين من عمره ، وبدأ قيادة رجاله فى الحرب الأهلية على رأس ستين جندياً ، وبهذه القوة حارب فى « إدج هل » ، وعلى الرغم من تفوق البرلمانيين فى الرجال والبنادق ، رأى كرمويل أن هذا التفوق لا يكون مجدياً بغير عنصر أصيل هو « القائد » .

وقد شرع كرمويل يعد رجاله على هدى مبادئه الخاصة ، وهى روح القتال العالية ، والضبط والربط ، والتدريب

التكتيكى الكبير . . وأيضاً ثقة الجنود التامة فى قائدهم .

وقد عمل كرمويل بروح جبارة تمثل بها رجاله ، وكان له ثقة عجيبة بقدرته على الفوز .

لقد وضع كرمويل برنامجاً لإعداد رجاله ، كما وضع المبادئ اللازمة للفوز فى الحرب ، وعنى بالروح المعنوية ، روح القتال والتصميم على النصر . . وبهذه الروح قاد كرمويل فرسانه الستين ، وهو كابتن ، فى أكتوبر عام ١٦٤٢ ، فى معركة « إدج هل » . وبعد عامين أصبح لفتنانت جنرال نائباً للقائد العام بجيش وستستر « جيش الولايات الشرقية » ، وكان يتولى قيادة الفرسان ، ثم أصبح القائد غير المنازع لقوات جيش البرلمان .

وقد عرف عن كرمويل أنه شديد الحساسية ، عصبى المزاج ، يحب الضبط والربط الشديد والتدريب العنيف ، وكان له إيمان عميق بصحة أهدافه ، وثقة بمقدرته على النصر . .

وقد كان النصر حليفه دائماً ، فلم يعرف الهزيمة قط .

وعندما يكون القائد ذا أهداف حقة ، وعندما يعطى جنوده النصر ، فلا شيء يستطيع أن يعترض طريقه .

ومن الطريف أن كرمويل الذى نجح فى ميدان الحرب لم يلق نجاحاً فى منصة الحكم عندما دانت له بريطانيا ، فقد جرب أربعة أنواع من الحكومات ، وهو الحاكم المطلق ، فلم تلق إحداها نجاحاً ، فأصبح دكتاتوراً أكثر من الملك

الذى أعدم لدكتاتوريته ! ولهذا انقضى نظام كرمويل بموته ، وعادت بريطانيا إلى الملكية والبرلمان .

نابليون :

أما القائد الثالث الذى أريد أن أتحدث عنه فهو نابليون .

قائد تسيطر عليه الأنانية وتوجهه المطامع الشخصية .

كان نابليون — على عكس القائدين السابقين — جنديًا بحكم المهنة ، فتدرب فى فاتحة شبابه على الجندية ، وكان مرموقاً فى صباه ، تبدو عليه علامات القيادة ، كان يريد أن يحرك الأولاد عند اللعب ويقودهم ، وقد وصل سريعاً ، وفى سن مبكرة ، إلى أعلى درجات القيادة ، فقاد جيشاً كاملا إلى إيطاليا وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، جيشاً أقل عددًا وعتادًا مما يملك خصومه . .

ولم يمض عام حتى أحرز نصرًا لامعاً فى شمال إيطاليا وأتم إخضاع أعدائه .

لقد بدأ نابليون عند توليه قيادة جيشه يدمج ضباطه وجنوده فى « جوه » ، ويسيطر عليهم ، ويجتذب كامل ثقتهم وإيمانهم به . . إن ثقة بونابرت بنفسه كانت خميرة الثقة العالية التى أولاه إياها جنوده .

وبجانب هذه الثقة العظمى بالنفس كان نابليون يغوص

بأفكاره فى شئون الحرب فيخرج بالمبادئ التى ينبغى توافرها لإحراز النصر . .

كانت لديه قدرة خارقة على تبسيط المشكلات وإدراك سريع للنقط الهامة ، فإذا تم له الوقوف على عناصر الموضوع ، وإذا ملأ جنوده بالثقة فيه ، وإذا جعل الروح المعنوية عالية ، فإنه لم يكن يعرف الإخفاق ولا المستحيل !

لقد كان نابليون سياسيًّا ، بمثل ما كان جنديًّا ، وكان له ولع بالدبلوماسية ومرونة ، ولكنه لم يستطع كبح شهواته فى الغزو وميله إلى السيطرة ، فطغت هذه على مقدراته الحربية ، وانتهت به إلى مأساة بل إلى كارثة : فى موسكو .

والآن ؛ ترى فيم اتفق هؤلاء الثلاثة الكبار : موسى ، وكرمويل ، ونابليون ؟ . .

إن الميزة الكبرى لثلاثتهم هى : إيمان الجنود بالقائد ، وثقة القائد بنفسه وأهدافه . .

ترى من أين للقائد هذه الثقة العظمى والقدرة على تحقيق هدفه فى الحرب ؟ أظن أن ذلك راجع لمقدرته على تبسيط الموقف ودراسة لوازمه ، وكيفية تحقيق هذه اللوازم المؤدية إلى النصر .

أى أن لديه عقلا يعرف به حاجته ، وعزماً يحقق به هذه الحاجة .

إذن ، فالقدرة على تقدير الموقف وتبسيط مشكلاته عامل

أساسى فى فن القيادة :

وكل من هؤلاء القادة الثلاثة كان على خبرة بإذكاء روح القتال العالية فى جنوده ، وبعث حماستهم وتركيز أفكارهم فى النصر . . وهى مقدرة ترجع إلى فهم العامل البشرى ، وتأتى من الدراسة المتوالية والاتصال الوثيق بالجنود .

فالقائد المحنك حقاً هو الذى يسبر غور جنوده ، ويكون على علم بالشعور والعواطف التى تؤثر فى نفوسهم ، كما كان كل منهم يعرف عواطف جنوده وأفكارهم ومطالبهم .

إن القائد الذى لا يهتم بالناحية الإنسانية هو قائد فاشل .

ولا يمكن لرجل أن يقود آخرين دون أن يتفهم مشاعرهم وعواطفهم ونفسياتهم ، ولايستطيع قائد — مهما كان عظيم الشأن — أن يثبت فى قيادته ما لم يحرز النصر ، إذ ليس ثمة خير فى قائد لا ينتصر ، وسرعان ما يتقلص نفوذه ، وتهبط أسهمه بين جنوده . وفى هذا يقول ونستون تشرشل فى دراسته الرائعة للقائد الأشهر مارلبوروه :

« إن نجاح القائد لا يتأتى من القواعد أو النماذج السابقة ، إنما يتأتى من التجديد الذى توجبه الحقائق الجلية فى الموقف ، ومن طريقة إدارة القوات فى القتال ، فكل عملية كبرى فى الحرب نسيج وحدها ، والمطلوب هو تقدير صحيح لكل موقف .

إن الخطأ المشين حقاً هو أن يجرى القائد الحرب على وتيرة قائد آخر فى معركة سابقة ، ويتمثل بما فعله فى زمن مضى

وظروف لا رجعة لها ».

وهذا حق ، فلا يوجد ثمة معركتان متشابهتان فى كافة الظروف أو أغلبها .

فكل موقف يطرأ على القائد يجب أن يعتبره شيئاً جديداً يحتاج إلى خطط جديدة ، ولا يجرى فيه التقليد ، ولو كان تقليداً عن أشهر القادة بلا استثناء .

ويكفى أن ننظر إلى قائمة الحرب العالمية الثانية ، والثقة العمياء التى وضعت فى خط ماجينو . . وكانت النتيجة إخفاقاً تاماً — ذلك لأن المسئولين وقفوا عند نقطة معينة فى حين أن فن الحرب يجرى ويقفز . . فلم تعد هذه التحصينات تصلح إلا للماضى الذى لا يعود . . أما القوات الميكانيكية والتقدم الصناعى فلا يستطيع ماجينو أن يقف فى سبيلها .

لكى يكسب القائد معركة لا بد له من وسائل وصفات أرى فى مقدمتها :

١ — تفهم أصول الحرب .
٢ — الوقوف على عوامل النصر الحربى .
٣ — الشجاعة والصلابة .
٤ — التقدير السليم .

القائد الجيد :

١ ــ القائد الجيد هو الذى يعرف أولا : ماذا يريد ؟ يجب أن يرى غرضه واضحاً ، وأن يحشد لغرضه كل قواه .

٢ ــ وهو الذى يجعل رجاله يعيشون فى جو المعركة فاهمين ما يدور فيها ، متنبهين لكل ما هو مطلوب منهم .

٣ ــ وهو الذى يتيح لمعاونيه ورجاله معرفة المعلومات بقدر المستطاع أولا بأول .

٤ ــ وهو الذى يرفض المركزية ، ويجعل رجاله يعملون فى التفصيلات ، ولا يدع لنفسه غير التوجيهات العامة .

٥ ــ وهو الذى يحسن اختيار معاونيه ويجيد توجيههم بمجهود يسير .

٦ ــ وهو الذى يعنى بالروح المعنوية ، والضبط والربط ، والاحترام الشخصى وثقة الجنود به وبأسلحتهم وهدفهم .

٧ ــ وهو الذى يبقى فى خط النار حتى يتم النصر .

٨ ــ وهو الذى يتمعن فى فهم أخلاق جنوده والشعور والعواطف التى تؤثر فيهم .

٩ ــ وهو الذى يقود جنوده بروح قائد الفريق فيعملون متآخين لإحراز النصر المبين .

١٠ ــ وهو الذى يستطيع وضع رجاله فيما يليق لهم ، أى يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب والعمل المناسب .

وأخيراً يقول مونتجمرى كلمة حكيمة للقادة « الذين يفخرون بشهاداتهم » :

« لا يوجد كتاب ولا نصوص موضوعة يستطيع بها القائد أن يحرز ثقة جنوده وتقديرهم ، ولكن المرجع الأساسى هو : « شخصية القائد » . .

يجب أن يعرفوه جيداً ، ويقدروه قدره ، « ويرونه منتصراً . . فإن الجنود . . كل الجنود يحبون السير وراء قائد منتصر » .

الخطط الحربية وتفاصيل القتال

ما هي أسلحة النصر في الحروب الحديثة ؟

على مسافة ٦٠ ميلا غربى الإسكندرية رسمت الطبيعة مسرح الحرب الذى جرت عليه معركة العلمين بكفاية لا نظير لها ، فأوقفت الخصمين وجهاً لوجه إعلى جبهة طولها ثلاثون ميلا ، يحدها من الشمال البحر المتوسط ، ومن الجنوب منخفض القطارة الذى لا سبيل إلى الحركة فيه .

وقرر مسرح الحرب هذا طبيعة القتال ، وحدد واجهته ، فلم يعد سبيل إلى حركة الالتفاف أو التوسع فى العمليات ، كما كان سابق العهد بالحرب الصحراوية . وبدأ دور الألغام من ناحية ، وقوة النيران من الناحية الأخرى ، فضلا عن دور سلاح الجو فى مهاجمته خطوط المواصلات والتموين ومواقع العدو الرئيسية .

كان موقع العلمين نهاية الغزوة العسكرية الفذة التى قادها روميل ، ودفع أمامه قوات الجيش الثامن مثخنة بجراح الهزيمة والاضطراب وفقدان الأمل ، حتى نهض الجنرال أوكنلك من كبوة طبرق ، وتولى القيادة بنفسه ، وقرر عدم ملاقاة روميل

فى معركة خاسرة ، وراح يحث قواته على الانسحاب ، فاجتازت مرسى مطروح دون مقاومة ، ثم تراجعت إلى فوكة ، ثم الضبعة ، وأخيراً ألقت عصاها عند عنق الزجاجة وضربت خيامها واستقرت .

وبهذا استطاع أوكنلك أن ينقذ الجيش الثامن من كارثة محققة ، وأن يسحبه إلى أنسب المواقع للدفاع حيث يقف مطمئناً إلى جناحيه ، وحيث لا تستطيع قوات البانزر أن تقوم بمناوراتها على الأجناب ، أو تمارس لعبتها المفضلة فى حركات الالتفاف .

وقد كانت قوات المحور تجد وراء الجيش الثامن أملاً فى تطويقه وتدميره قبل أن تمتد مواصلاتها ، وينفد وقود عرباتها ، وتفتر سرعتها ، فكان انسحاب أوكنلك اجتذاباً لقوات المحور إلى معركة على غير رضاها ، وإلى مواقع لا تناسب أسلوبها المفضل .

وعلى جانبى ذلك الخط الممتد من تل آل عيسى — بين سيدى عبد الرحمن والعلمين — حتى منخفض القطارة ، وقف الغريمان وجهاً لوجه ، وعمدا إلى عمليات إعادة التنظيم والاستعداد للمعركة الحاسمة .

وكان كل تأخير فى الاشتباك يضر بموقف القيادة الألمانية ، حيث خفت سرعة الانقضاض ، وهمدت نشوة النصر ، وطالت خطوط المواصلات ، وتعرضت قوافل التموين والوقود

لهجمات بحرية وجوية متزايدة الخطر .

ولهذا كان روميل دائب السعي للبدء فى الهجوم فى الشمال أو الوسط أو الجنوب ، يختبر متانة الموقع ، وأنواع الأسلحة ، ويجرب قدارته على الخداع والانقضاض ، وهكذا تعرضت الجبهة كلها لعمليات كرّ وفرّ متتابعة ، وتحطمت عندها مئات من العربات والمعدات والقتلى والأسرى .

وانقضى النصف الأول من شهر يونيو على وتيرة واحدة : هجمات من جانب الألمان هنا مرة وهناك مرة ، فتقابلها القوات الإنجليزية بمقاومة فعالة لتعيدها إلى خطوطها الأولى قبل انتهاء اليوم . .

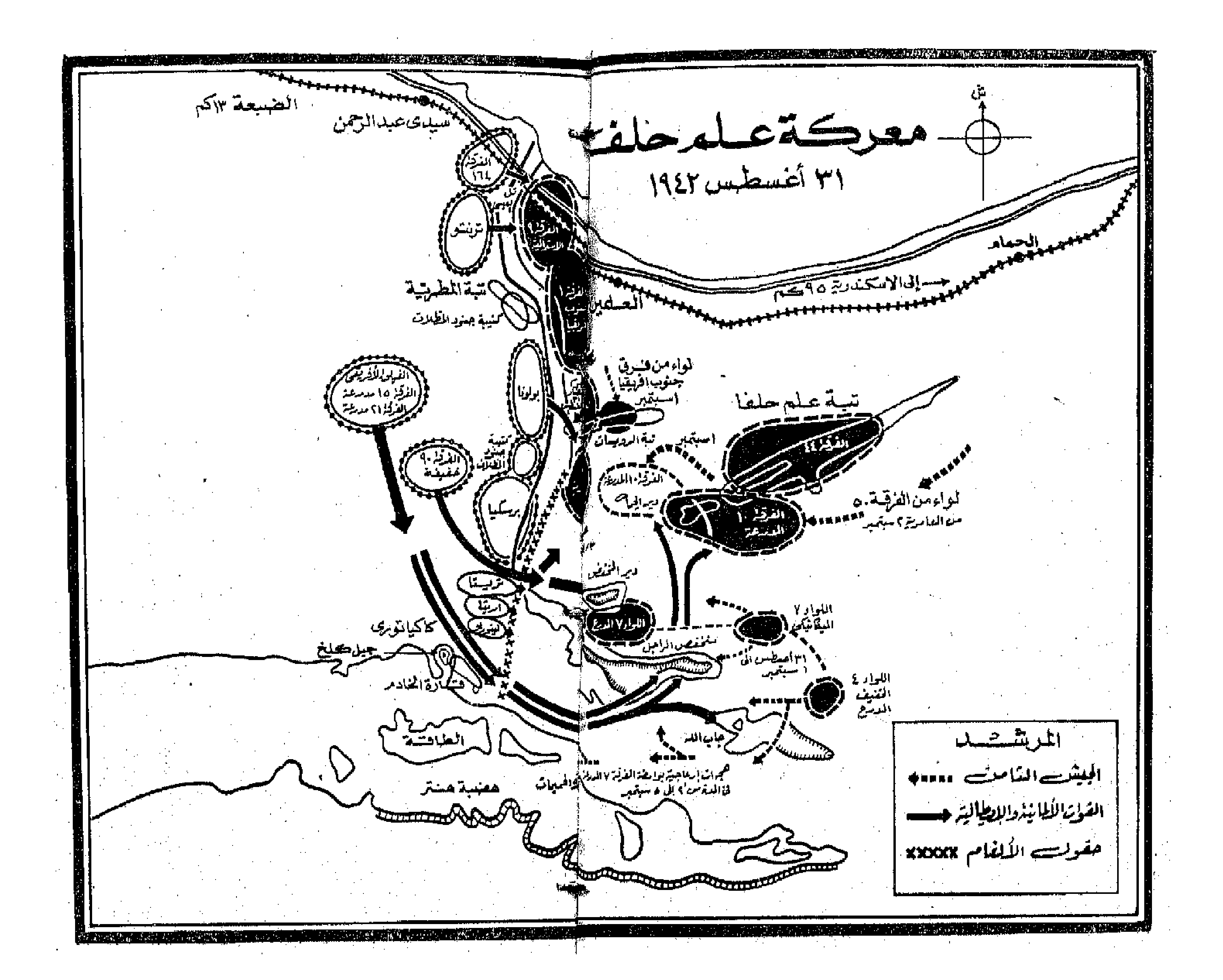
فإذا جاء يوم ١٤ يوليو كان الجيش الثامن قد أحبط مشروع جيش إفريقيا الألمانى الذى أراد به أن يحدث أكبر ضغط ممكن على خط العلمين ، فقد زحفت الدبابات الألمانية — تؤيدها المشاة فى اللوريات — بين كثبان الرمل عند تل آل عيسى فى أقصى الساحة الشمالية ، فى حين قام الإنجليز بهجوم فى الساحة الوسطى على طول هضبة تعدّ مفتاح الموقف . وكانت نيران مدافع الجيش الثامن تطلق ستاراً من النيران الجهنمية على مراكز الإيطاليين ومشاة الألمان عند منحدر الهضبة ، وتقيم حولها غلالة مروعة ، ثم اندفع المشاة للهجوم ، واشتبكت الدبابات فى منازلات عنيفة . . وبعد قليل توقفت معركة الدبابات فى الساحة الوسطى ، واحتفظ الحلفاء بمراكزهم ،

وهجمت قوات المحور على هضبة الرويسات ، ولم ينل أحد الطرفين كسباً من هذه العمليات ، وعاد كل إلى قواعده بعد أن لحقه من الخسائر والأضرار نصيب كبير .

وفى النصف الثانى من شهر يونيو حدثت معارك الهضاب ، فى سبيل السيطرة على الهضاب الواقعة إلى الغرب والجنوب الغربى من العلمين . وقد اشتدت فيها معارك الدبابات والمشاة ، أما الهضاب التى كان القتال دائراً بسببها فهى تل آل عيسى والمخاض والمتربة ، وهى تقع فى الساحة الشمالية على مقربة من الساحل ، ثم الطرف الغربى من هضبة الرويسات ، وهضبة دير الشين المتصلة بها أو المتممة لها ، وهضبة الطاقة وهى هضبة مرتفعة مسطحة تقع على حافة منخفض القطارة ، وتعد الحد الجنوبى لجبهة القتال . .

وقد ظلت المعارك سجالا ، يشتد فيها القتال بالدبابات تارة ، وبالمشاة أخرى ، وتتخذ نفس الصورة التى تميزت بها حرب الصحراء ، وهى صورة الكرّ والفرّ والقتال المتنقل بين مكان ومكان .

وقد استخدم الألمان دباباتهم فى هذه الفترة استخداماً جديداً ، فقد وضعت وحدات منها فى دشم وخنادق ، واستخدمت فى مساعدتها بطاريات المدفعية . والحقيقة أن تسليح الدبابات قد تطور تطوراً كبيراً . والذين شهدوا فيلم انتصار الصحراء قد لاحظوا بغير شك ضخامة الدبابات وقوة


معركة علم حلفا
٣١ أغسطس ١٩٤٢
الضبعة ٣٠كم
سيدى عبد الرحمن
الحمام
إلى الإسكندرية ٩٥ كم
العلمين
تبة المطرية
ترنتو
بولونيا
بريسكيا
لواء من فرق جنوب أفريقيا
تبة علم حلفا
لواء من الفرقة ٥٠
تبة الرويسات
دير المنخفض
اللواء ٧ الميكانيكي
اللواء ٧ المدرع
منخفض الراجل
اللواء ٤ الخفيف المدرع
كاكيا نورى
جبل كلخ
قارة الخادم
الطاقة
هضبة هنتر
جاب الله
المرشد
الجيش الثامن
القوات الألمانية والإيطالية
حقول الألغام

ذروعها ، ولكن ذلك لم يثر دهشة الفنيين منهم بقدر ما أثارتها أنواع المدافع التي كانت تتسلح بها هذه الدبابات .

ولم تحدث في شهر أغسطس عمليات تستحق الذكر ، ولم يطرأ تعديل على الموقف ، فانحصر النشاط في أعمال الطائرات التي كانت قوية الجناح ، شديدة الخطر على الموقف عامة ، وكذلك كانت القوات البحرية دائمة العمل تجاه السواحل المصرية والليبية ، لمطاردة سفن المحور ومقاتلة غواصاته ، وشل حركة التموين عن طريق البحر ؛ فالسيطرة الجوية والتفوق البحري قطعا أمر معركة الإمدادات .

وفي منتصف أغسطس جاء إلى الميدان — في العلمين — رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل ، ومعه بشرى الإمدادات السخية التي تدفقت من إنجلترا وبقية أجزاء الإمبراطورية ، وجاء معه أيضاً قيادة جديدة وخطط واسعة المدى ، فقد أعلنت وزارة الحربية البريطانية تعيين الجنرال سير هارولد ألكسندر قائداً عاماً للشرق الأوسط ، وقد اشتهر بأنه كان آخر قائد غادر « دنكرك » ، وتعيين « اللفتنانت جنرال » برنارد مونتجمري قائداً للجيش الثامن . . .

وبدأت مرحلة جديدة آذنت بتطور حاسم . . .

وحدث أول لقاء بين روميل ومونتجمري ، في معركة علم حلفا . . .

في ليلة ٣٠/ — ٣١ أغسطس قام روميل بحركة جريئة ،

فانقلب الميدان الهادئ إلى ساحة عمليات صاخبة ، وتحركات عنيفة ، وقتال مروع أطلق عليه معركة « تبة علم حلفا » التى تقف وراء منطقة العمليات فى العلمين ، كأنها تحمى الإسكندرية .

وكان توزيع القوات كالآتى :

قوات المحور : من الشمال (فى تل العيسى) الفرقة ١٦٤ — فرقة ترنتو — كتيبة مظلات — فرقة بولونا — كتيبة مظلات — فرقة برسكيا — فرقة تريستا — فرقة أريتا — فرقة ليتوريو فى آخر الخط جنوباً ؛ وإلى الخلف وسط الجبهة وقف وراء هذه الفرق الإيطالية الفرقة ٩٠ المدرعة ، وخلفها الفيلق الإفريقى بفرقتيه المدرعتين ١٥ و ٢١ ، وهو عنصر الانطلاق وقوة الانقضاض .

أى أن مهمة الفرقة الإيطالية كانت شغل الجبهة من الشمال إلى الجنوب للتعمية عن الهجوم الأساسى الذى يقوم به روميل على رأس الفيلق الإفريقى .

قوات الجيش الثامن : من الشمال الفرقة الأسترالية — فرقة جنوب إفريقيا — الفرقة الهندية — فرقة نيوزيلاند . وفى الجنوب إلى الخلف اللواء ٧ المدرع عند دير المخفض ولواءان مدرعان فى جاب الله ومنخفض الراجل ، هذا فى حين سيطرت الفرقة ٤٤ على الموقف كله فى وسط الجبهة ، وإلى الخلف على تبة علم حلفا ، تعاونها الفرقة ١٠ المدرعة ، جنوب تبة الرويسات .

وكان أهم ما فعله مونتجمرى هو نقل رياسة الجيش لتكون متاخمة وملتحمة برياسة القوات الجوية ، كما قرر استخدام المدفعية والقوات المدرعة بتركيز وتجمع شديدين .

بدأ روميل هجومه بثلاث ضربات ليلة ٣٠–٣١ أغسطس عام ١٩٤٢ فى وقت واحد :

● فى الشمال ضد الفرقة الأسترالية ، وقد استطاعت صد الهجوم .

● فى الوسط كانت الضربة أشد ، فتراجعت الفرقة الهندية ، ثم عادت وثبتت .

● فى الجنوب كانت الضربة الرئيسية حيث اخترق الفيلق الإفريقى حقول الألغام ومرق بسرعة إلى تبى منخفض الراجل وجاب الله . كذلك نجحت الفرقة ٩٠ الخفيفة الحركة فى الانقضاض على دير المخفض .

وفى عصر يوم ٣١ أغسطس دارت القوات الألمانية إلى الشمال الشرقى متجهة نحو تبة علم حلفا ، ولكن توقف الهجوم أمام نضال القوات الإنجليزية المدرعة ، وخفتت قوة الهجوم على طول الجبهة بسبب التفوق الجوى البريطانى ؛ واستمرت العمليات يومى ١ و ٢ سبتمبر فى محاولات ألمانية للتقدم فى مواجهة عمليات تعطيل وهجوم مضاد مستمرة .

وفى يوم ٣ سبتمبر بدت كفة الإنجليز راجحة بفضل تعاون قوات البر والجو ، وبدأ الألمان يرتدون . . .

وانتهت معركة علم حلفا دون تحقيق غاية هجوم المحور ، وبدأت قوات الجيش الثامن تعيد تنظيمها وتستعيد معنوياتها .

وعاد الهدوء يخيم على الميدان دون أن تغمض عين ، فقد كان الهدوء الذى يسبق العاصفة ؛ وكانت التنبؤات تشير إلى موعد قريب ، كما كانت طبيعة المنطقة تحدد شكل المعركة ، وربما نتيجتها .

وكانت العوامل الرئيسية التى تتحكم فى المعركة المرتقبة هى :

١ ـ ميدان العمليات :

يقف الجيشان المتحاربان فى خطين متقابلين ، وتستند القوات الإنجليزية إلى قواعد قريبة ، ومن خلفها خطوط مواصلات جيدة تأتى من مختلف أجزاء الإمبراطورية وتحمل الإمدادات من الجنود والمهمات والأسلحة .

وتشعر القيادة الإنجليزية والحكومة بخطورة الموقف ، وتجدان لإمداد قواتهما بكل ما فى الطوق لكسب هذه الموقعة الفريدة ، وقد تعدلت القيادة ، وولى أمرها قادة أكفياء تثق الحكومة بكفايتهم ، وتعتمد عليهم فى تحقيق هذا الغرض الكبير الذى يعد فاتحة أغراض الحرب النهائية .

وفى الخط الثانى تقف قوات المحور ، ونصفها من الألمان ، وهم رجال حرب ذوو كفاية ومقدرة ، ومعداتهم من النوع الممتاز ، ولكن تحطمت أعداد منها أو فقدت ، ولم تسعفهم ،

مواصلاتهم الطويلة المهددة باستكمال عدتهم وإحضار ما يحتاج إليه الموقف من أدوات وأسلحة تعطى التفوق الساحق الذى تحتاج إليه عملية كبرى فاصلة .

٢ ــ المدفعية :

كانت المدافع أكثر الأسلحة تدفقاً على الجيش الثامن ، وكان الموقف يتطلب حشداً كبيراً من مدافع الميدان والمدافع المضادة للدبابات والطائرات ، حتى يتمكن أحد الفريقين من تدمير دفاعات الآخر ووحداته المدرعة ، وكانت كفة المدفعية الإنجليزية راجحة رجحاناً ملحوظاً وحاسماً .

٣ ــ الوحدات المدرعة :

حدثت عدة معارك قبل أن تصل القوات المتحاربة إلى خطوطها فى العلمين ، وكانت هذه المعارك من نصيب الدبابات الألمانية التى أحدثت الهزيمة للإنجليز ودباباتهم ، ودفعتهم فى غياهب الهزيمة الصحراوية المروعة ، ولكن هذا لا يقلل من الخسائر التى تعرضت لها الدبابات الألمانية ، كما أن المعارك التى حدثت فى ساحة العلمين قد زادت من هذه الخسائر ، وقد ذكرنا من قبل أن شحنات من الدبابات قد وصلت إلى الألمان ، وأنهم تمكنوا فى فترة الراحة من إصلاح بعض دباباتهم .

وفى الناحية الثانية نجد أن الإنجليز قد بدءوا عملياتهم فى العلمين بقوة متواضعة من الدبابات ، ثم انهالت عليهم فى سيل الإمدادات أنواع جديدة أمريكية متفوقة ، فأصبح لهم تفوق ملحوظ فى عدد القوات المدرعة .

٤ ـ السيادة البحرية :

لم تستطع سفن المحور ـ وهى سفن الأسطول الإيطالى ـ مساعدة القوات البرية مساعدة كافية ، وقد تعرضت للبحرية الإنجليزية فى أكثر من مرة فهزمت أمامها وقل أثرها فى الموقف ، وقد استطاعت دول المحور أن تستخدم المياه الإقليمية الفرنسية فى تونس ، ولكن ذلك لم يخفف من خسائرها ؛ كما أن خط المواصلات المديد من تونس إلى مصر كان يضعف من شأن هذه الإمدادات .

٥ ـ خطوط المواصلات :

وقد جاء ذكر موضوع المواصلات أكثر من مرة فى سياق الحديث عن عمليات الصحراء ، والحقيقة أنه الموضوع الأساسى فى هذه المساحات ، وفى كل مرة كانت القواعد تبعد ، وخطوط المواصلات تمتد ، كنا نرى القوات تفقد السيطرة التامة التى لها على الموقف ؛ فإذا ما صدمت صدمة قوية

عادت أدراجها بسرعة كبيرة حتى تصل إلى قواعدها وتقصر خطوط مواصلاتها إلى أقصى ما تستطيع حتى يمكن أن تمالك أمرها ، وتنظم صفوفها ، وتستعيد تفوقها .

فى هذا الموقف كانت قوات المحور بعيدة عن قواعدها بنحو ٧٠٠ ميل من بنغازى ، وكانت خطوط مواصلاتها المديدة هذه معرضة لهجمات جوية مستمرة ، كما كانت القواعد نفسها تحت خطر الضرب من البحر والجو .

أما توزيع القوات فكان على صورة يلاحظ فيها أن الجيش الثامن كان أقل انتشاراً من قوات المحور التى قسمها روميل إلى قوة مدرعة فى الشمال وأخرى فى الجنوب مدعمتين ببعض الألمان ، وفى الوسط مشاة إيطاليون .

وقبل أن تنشب المعركة الرئيسية كانت القوات الإنجليزية موزعة على النحو الآتى :

الفرقة الأسترالية فى الشمال تواجه تل آل عيسى ، ومنها إلى الجنوب قليلا فرقة جنود جنوب إفريقيا ، وفى الساحة الوسطى الفرقة الهندية ، وفى الخلف قوات احتياطية ثم الفرقة ٥٠ ، ومعها الفرنسيون واليونانيون الأحرار عند دير المنسى ، وفى الجنوب الفرقة الإنجليزية تواجه الحميات ، وكانت هناك قوة كبيرة سيجىء الحديث عنها عند ذكر دورها .

أما قوات المحور فكانت بالترتيب الآتى من الشمال إلى الجنوب :

فرقة البانزر ١٥ ، والفرقتان ١٦٤ و ٩٠ الألمانيتان ، وفرقتا تريستا وليتوريو الإيطاليتان . وفى الساحة الوسطى فرقة بولونيا وفرقة أرتريا المدرعة الإيطالية ، وفى الجنوب فرقة البانزر ٢١ ومشاة ألمان وفرق برسكيا وفولجور وبافيا الإيطالية .

ونلاحظ أيضًا أن روميل كان يرمى من هذا التوزيع أن يترك المنطقة الوسطى من خطوطه ضعيفة ، متوقعاً أن يقع الجيش الثامن فى خطأ مهاجمتها ومحاولة شق طريقه خلالها ، فيقع حينئذ بين فرق البانزر من الشمال والجنوب ! . . ولكن قيادة الجيش الثامن لم تقع فى هذا الشرك ، وكانت تضع من ناحيتها خطة تنطوى على الحكمة والدراية ، وتحمل على المفاجأة أيضاً .

فقد كان على الجيش الثامن أن يخترق خطوط العدو فى أى ساحة إلى مسافة ٦٠٠٠ ياردة تقريباً فى الضربة الأولى ، ليجتاز حقول الألغام أو الخنادق ، ثم الاستفادة من هذه الثغرة إلى أقصى حد ؛ ولذلك أنشئت وحدة جديدة باسم الفيلق العاشر مكوناً من نحو ٥٠,٠٠٠ رجل ، وبه أحسن أنواع الدبابات ؛ وقد سحبت هذه القوة من ميدان القتال على إثر صد قوات روميل فى خط العلمين ، ووقفت جهودها على التدريب والتمرين والاستعداد خلف الخطوط بخمسين ميلا .

وفى الساعة المناسبة كان هذا الفيلق هو الصاعقة التى انقضت من خلال الثغرة ، وقضت على جيش روميل . وقد نفذت هذه الخطة البارعة فى الصحراء تحت ستار باهر من

التخفى ، ولم يكن هناك شك فى أن روميل متوقع هجوماً كبيراً ، بل كان يعرف ذلك جيداً ، وقد كانت كل الدلائل تنطق بذلك . ولكن أين يقع هذا الهجوم ؟ ومتى ؟ وكيف يقع ؟ فكل هذه الأشياء كانت خافية :

وقد كانت طائرات الاستكشاف الألمانية ترصد أعمال الفيلق العاشر ، وتنقلها إلى القيادة التى كانت تتوقع ألا يحدث الهجوم المنتظر قبل أن يترك هذا الفيلق مكانه ويشترك فى العمل .

ولكن ما حدث كان مفاجأة حقاً ، فقد تحرك الفيلق العاشر ليلا تاركاً خلفه المعسكرات خالية من الجنود ، ولكنها مليئة بالدمى والأجسام الهيكلية التى كانت تمثل الدبابات والعربات والجنود فى صورة متقنة . فلما حدث الهجوم فعلا كان مفاجأة تامة ، فالجيش الثامن هجم فى وقت غير متوقع ، ولم يهاجم النقطة الضعيفة كما كان منتظراً ، ولكنه هاجم أقوى ساحة فى الميدان .

وكانت الخطة تبدأ بوابل قوى من قنابل الطائرات ، وعاصفة راعدة من نيران المدفعية ، لتحطيم الدفاعات ، ثم هجوم المشاة ومعها المهندسون ، لتنظيف الطريق ؛ وأخيراً تكون الجولة النهائية للمدرعات ؛ وبذا كان كل شىء فى ذلك الهجوم مفاجأة لقيادة المحور فى الوقت والطريقة والجهة والقوة المنقطعة النظير .

المعركة :

بدأت المعركة فى الساعة التاسعة والنصف تماماً من صباح الجمعة ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، فعلى طول المواجهة كانت المدافع الإنجليزية مبثوثة بحساب مدفع كل ٢٣ ياردة ؛ وكانت العمليات قد بدأت فى الليل ، واختيرت ليلة قمرية ساطعة الضوء .

وفى الدقيقة المحددة انطلقت أفواه المدافع مرة واحدة تقذف قنابلها المدمرة كالوابل محدثة ستاراً شديداً عنيفاً من النيران ، واستمر الوابل على أشده عشرين دقيقة ، وأخذ يتكرر من وقت لآخر ، وفتحت قوات الحلفاء ثغرة فى حقول ألغام المحور .

وقد وصف الميدان بأنه شعلة من نار القنابل المتفجرة والأنوار الكاشفة والأغراض المشتعلة بالنيران من ساحل البحر إلى منخفض القطارة . .

وفى الصباح حمل البرق إلى أنحاء العالم البلاغ الذى أصدرته قيادة الشرق الأوسط عن الهجوم ، وقد جاء فيه « هجم الجيش الثامن ، تؤيده قوة جوية كبيرة ، فنشب قتال عنيف اشتركت فيه مقاتلات قسم الصحراء التابع لجيش الولايات المتحدة بالشرق الأوسط ، وقامت فى الوقت نفسه قوات الحلفاء البحرية بغارة على مراكز المحور الساحلية عند مرسى مطروح .

وفى الساعة العاشرة من صباح ٢٣ أكتوبر تقدمت المشاة

فى الساحة الشمالية . وفى فجر اليوم التالى بدأ الاختراق فى حقول الألغام لشق الطريق للقوات المدرعة ، واستمر العمل هادئاً وفى حماية المدفعية ، فلما كانت ليلة ١ـ٢ نوفمبر انتهت المرحلة الأولى وبدأت العمليات .

وكان تعاون الجيش والقوة الجوية وثيقاً جداً فى المعركة . . لم تكن هناك قيادتان ، أو كما قال الجنرال مونتجمرى :

« سيكون الجيش الثامن والقوات الجوية التى تشد أزره كتلة واحدة ، فكلاهما يعمل لتنفيذ خطة واحدة ، فلم تكن هناك خطتان إحداهما للبر والأخرى للجو . . . وهذا مصدر قوتنا العظيمة » .

فعلى طول الرقعة وعمقها ابتداء من سبتمبر حتى ابتداء الهجوم كانت القوة الجوية تدق مواقع المحور الخلفية وخطوط مواصلاته ونقط التموين والمطارات ، ثم أخذت تحمل على العدو عند ابتداء المعركة . وسجلت رقماً قياسياً فى عدد عملياتها التى اشتركت فيها قاذفات القنابل الخفيفة والمتوسطة وطائرات القتال ، فأصابت عربات الذخيرة ، ونسفت مستودعات الأسلحة ، وسجلت إصابات فى مدافع الميدان وسيارات النقل ، وشبت الحرائق ، وسكتت بعض مراكز الدفاع ، ووجهت الطائرات من قاذفات القنابل همها إلى الأهداف المجاورة للثغرات التى فتحت فى حقول الألغام ، لمساعدة القوات البرية على شق طريقها .

وكانت الغواصات تعمل بنشاط كبير على طول الشاطئ لإعاقة الإمدادات من البحر ومنعها ، حتى إن المراكب التى خرجت من الموانئ الإيطالية أو اليونانية أغرقت أو ارتدت .

وفى أثناء المعركة البرية قام الأسطول بإغارات متواصلة على المراكز الساحلية بواسطة سفن الجيب ، وهى زوارق طوربيد سريعة صنعت حديثاً فى المصانع الأمريكية .

وكان نشاط المحور الجوى ضيق النطاق ، وكان دفاعياً ، فقد انهزمت طائراته ، ولم يعد لها نفوذ فى سماء المعركة .

ومنذ يوم ٢٣ أكتوبر أحرز السلاح الجوى البريطانى سيطرة تامة ، فقام بحملات عنيفة وهجوم ساحق على مطارات المحور ، وخطوط مواصلاته ، ومواقع المدفعية ، ونقط تجمع القوات المدرعة وجنود المشاة .

انتهت المرحلة الأولى من معركة مصر — كما قدمنا — بتقدم جنود المشاة ، ثم تبعها المهندسون ، فإن الأرض التى تكتسحها المشاة يجب أن تنظف من الألغام قبل أن تصير آمنه لمرور المدرعات . . . فالألغام للدبابات كالأسلاك للمشاة ، وقد كانت تدفن تحت سطح الرمل بمجموعات وفواصل مختلفة ، وكانت تكتشف بآلات كهربائية تشبه المكانس ذات الأيدى وبأجهزة متشابهة .

وقد عمل مهندسو الجيش الثامن فى الليل مدة أسبوعين ، وفى الأسبوع الأول من المعركة كانوا يعملون تحت الخطر وبين

المقذوفات والويلات ، وقد كانت مهمتهم عسيرة ، فإن فن وضع الألغام قد وصل إلى تقدم كبير ، وكانت العملية تتطلب احتراساً وافراً و بحثاً دقيقاً ، ولكن المهندسين نجحوا، وفرغوا من مهمتهم بسرعة ، وأزاحوا الموانع والمصايد ، وفتحوا الطريق للقوات المدرعة .

وفى ٢ نوفمبر فرغ المهندسون من أعمالهم ، وانتهت المرحلة الأولى من مراحل المعركة ، وتقدمت الدبابات للاتصال بدبابات المحور . وبالمناسبة نذكر أن الجيش الثامن كان يحس نقصاً وضعفاً فى دباباته وأنواعها حتى شهر يوليو ، ولكن فى أكتوبر لم يعد هناك فارق ، فقد وصلت دبابات الكروسدور من بريطانيا ، ودبابات جرانت وشرمان من أمريكا ، وهذان النوعان يساويان أحسن الدبابات الألمانية الثقيلة ، كما ظهر فى المعركة .

فى الأسبوع الأول من الهجوم ألقت قاذفات القنابل ما يقرب من ٨٠٠ طن من القنابل على قوات المحور فى منطقة القتال ومطاراته الأمامية ، ولذا كان لسلاح الجو أثر خطير فى المعركة . .

وقد لوحظت حقيقتان فى هجوم الجيش الثامن : أولهما أن قواته المدرعة ندر أن هوجمت من الجو ، والثانية أن ٥٥٠ طائرة معادية أسقطت أو اضطرت للهبوط ، كما ذكرت البلاغات الرسمية .. وقد لعبت الطائرات دوراً هاماً فى إحباط

الهجمات المضادة أيضاً .

ومضى أسبوع على ابتداء المعركة ، وقد أخذت القوات البريطانية توسع الممر فى المنطقة التى احتلتها ؛ وحدثت معارك صغيرة فى أمكنة مختلفة من الساحة الشمالية اشتركت فيها وحدات مدرعة من قوات الفريقين ، ولكن القوات الإنجليزية احتفظت بالمنطقة التى استولت عليها فى بداية الهجوم ؛ وأخذ الجيش الثامن يطهر حقول الألغام ببطء ويوسع الثغرات التى أحدثت فى الاستحكامات ، ويقترب شيئاً فشيئاً من الخط الذى يمكن عنده أن تعمل القوات المدرعة . وفى أثناء ذلك كانت قوات المحور تقوم بكرات متوالية اشتركت فى مواجهتها وإحباطها القوات الجوية التى كانت تواصل ضغطها الرهيب وتضرب بشدة .

وفى ليل ٣٠-٣١ أكتوبر بدأ زحف البريطانيين وهجومهم الكبير ، وقد بدأ ذلك بالستار المعهود من نيران المدفعية ، وتم الزحف على مقربة من الساحل بنجاح لم يكن السبب فيه براعة الخطط التى وضعت ونفذت بدقة فحسب ، ولكن جاء أيضاً بسبب المفاجأة التكتيكية ، فالفيلق العاشر المكون من فرقتين مدرعتين وفرقة مشاة نيوزلندية كان يتدرب خلف خطوط القتال وقبل نشوبه بمراحل ، فجاء إلى الميدان فى الساعة المناسبة موفور العدة كامل التأهب .

وفى فجر يوم ٢ نوفمبر تقدمت قوة إنجليزية مدرعة خلف

الخطوط الألمانية ، فى حين كانت قوات مدرعة أخرى تضغط فى الناحية الغربية . وبدأت معركة الدبابات فى تل العقاقير ، وكانت نقطة البداية والتحرك . .

وقد عمد الألمان إلى توجيه هجمات مضادة وفى نقط مختلفة دون أن تنجح واحدة منها ، وكان المشاة الإنجليز مستمرين فى شق طريقهم بين حقول الألغام والمراكز الحصينة والفخاخ وغيرها من العقبات والعراقيل ، وكان جنود المشاة فى هجومهم مؤيدين بستار هائل من النيران ، ومتى تم فتح بعض الطرق أو الثغرات تدفقت فيها الدبابات والوحدات الميكانيكية لمقابلة وحدات العدو السريعة وقواته المدرعة .

وقد تقررت المعركة فى الساحة الشمالية حيث أعقب الاختراق معركة الدبابات . وفى الساحتين الوسطى والجنوبية كان القتال ثانوياً وتابعاً للعمليات فى الساحة الشمالية ، وقد أحدثت الضربة الأولى توزيع قوات المحور فى ناحيتين لم يمكن الاتصال بينهما ثانية .

وقد قاتل روميل بشدة لرد الجيش الثامن من الطرف الغربى للثغرة التى فتحها المشاة جنوبى المنطقة الساحلية ، وكان يؤيد قواته المصفحة بستار من النيران المضادة للدبابات ، ولكن قوات الحلفاء تغلبت على مقاومته ، وأسرت عدداً كبيراً من الجنود . وقد قال بعض الأسرى إنهم كانوا فى حالة ذهول من

قنابل الطائرات والمدافع التى كانت تصب عليهم باستمرار أثناء الليل والنهار .

فالحدث الأول الفاصل فى معركة العلمين كان اختراق المشاة ، والحدث الثانى كان معركة الدبابات فى العقاقير . وقد مهد الحدث الأول للثاني ، وكان الثانى معززاً للفوز الأول ، وقد حدثت معركة الدبابات هذه يوم ٢ نوفمبر ، وفى ذلك اليوم دفع الألمان كل قواتهم المدرعة حيث كانت القوة الإنجليزية قد أحدثت الاختراق ، وثبتت فى المنطقة ، وتقدمت الدبابات الإنجليزية فدار قتال شاق عنيف ، وحدثت خسائر فادحة فى الناحيتين ، وهزمت الدبابات الألمانية ، وانتهت المعركة فى ساعات ، وفضل روميل أن يسرع بالعودة ، وأن ينقذ قواته ويخرج بها من براثن الفناء أو الأسر ، وكانت هذه المهمة من أشق المهام العسكرية ، وخصوصاً فى حالة فقد السيطرة الجوية . . .

وقد وصفت ساحة العقاقير فى رسائل المراسلين الحربيين بأنها « مقابر الدبابات » أو معرض المركبات المحطمة .

وفى ليل ٢–٣ نوفمبر احتل الإنجليز العقاقير ، وقالت الأنباء إن ٢٦٠ دبابة للمحور قد وقعت فى أيدينا أسيرة أو محطمة .

وبذلك حطمت معركة ٢ نوفمبر قوات المحور ، وفى ذلك اليوم ظهرت علامات انسحابها على طول الخط . وفى يوم

٣ نوفبر بدا ذلك حقيقة واضحة .

وفى الجنوب لم تستطع القوات الإيطالية أن تتراجع كثيراً ولا سيما جنود المشاة الذين جردوا من المركبات ، فأخذت منهم أفواج الأسرى ، كذلك توقفت الفرقة ١٦٤ الألمانية ، ولم تستطع أن تتراجع ، وتراجعت بقية القوات الألمانية تاركة خلفها نحو ثمانية آلاف أسير بين القتلى والجرحى ، وقد قتل الجنرال فون ستوبى نائب روميل وأسر ريترفون توما قائد جيش إفريقيا الألمانى ، وأسر أيضاً قائدا فرقتى برسكيا وترنتو الإيطاليتين . وقد قدرت التقارير الرسمية للقيادة البريطانية خسارة المحور بـ ٧٥ ألف رجل وأكثر من ٥٠٠ دبابة و١٠٠٠ مدفع على الأقل .

وبعد كسب معركة الدبابات بدأت المطاردة ، وفى ٤ نوفبر أذاعت قيادة الشرق الأوسط بلاغاً جاء فيه : « تتقهقر قوات المحور فى الصحراء الغربية بصفة نهائية بعد هجمات قواتنا البرية والجوية المتواصلة مدة اثنى عشر يوماً وليلة ، وتهاجم قواتنا البرية وقوات الحلفاء ليلا ونهاراً ، وفى غير رحمة ، طوابير العدو التى سادها الاضطراب وعدم النظام .

« وقد دمرنا حتى الآن أكثر من ٢٦٠ دبابة ألمانية وإيطالية ، وغنمنا أو حطمنا ما لا يقل عن ٢٧٠ مدفعاً ، ومن المتعذر فى المرحلة الحالية من القتال إحصاء الغنائم إحصاء تامًّا .

« وفى أثناء هذه الأعمال الحربية دمرت قواتنا الجوية — التى تحملت خسارة طفيفة — وأعطبت أكثر من ٣٠٠ طائرة فى

معارك جوية ، وحطمت أو عطلت مثل هذا العدد على الأرض .

« وفى البحر أغرقت قواتنا البحرية والجوية ما حمولته خمسون ألف طن من السفن ، وأتلفت مثل هذه الحمولة من السفن التى تحمل الإمدادات إلى شمال إفريقيا .

« ولا يزال الجيش الثامن يواصل زحفه إلى الأمام . . . »

وقال البلاغ الإيطالى :

« إن معركة دامية عنيفة دارت فى المنطقة الصحراوية الواقعة بين العلمين وفوكة بين دباباتنا ومشاتنا وبين الوحدات التى تماثلها من قوات العدو ، وبعد مقاومات عنيفة غير عادية انسحبت الجيوش الإيطالية والألمانية غرباً . وكانت خسائرنا فادحة » .

ووجه الجنرال مونتجمرى إلى قواته رسالة جاء فيها :

« لقد استغرقت المعركة الحالية ١٢ يوماً حتى الآن قاتلت فيها قواتنا قتالا عنيفاً رائعاً أنهك العدو ، إن العدو الآن فى قبضة أيدينا ، وهو على وشك الدمار ؛ وإنى أهيب بجميع القوات أن تواصل ضغطها على العدو وألا تتراخى فى ذلك لحظة ، لقد أضحى النصر النهائى قريب المنال . . »

وكان موقف روميل حرجاً ومن المواقف التاريخية العنيفة التى واجهها قادة عظماء، فقد هزمت قواته بعد أن أخرجت من مراكزها الحصينة، وفقد مراكز تموينه الأمامية مع استهداف

مواصلاته باستمرار لنيران الطائرات والمدفعية ، وحدث ذلك في نهاية خط تموينه المديد ، فكاد موقفه أن ينقلب كارثة نهائية وقد حاول تدمير كل ما يستطيع تدميره في الصحراء ، وكان يضع كل عراقيل يجيدها لسد الطريق ، وأبدى في فوكة مقاومات ناجحة ريثما اجتمع شمل قواته ، وبدأ خطة الانسحاب ، ثم تخلى عن فوكة يوم ٦ نوفمبر ، واندفع غرباً ، وأعطته الأحوال الجوية ، التي أعاقت التقدم ، فرصة مناسبة لتنظيم قواته .

وفي ٨ نوفمبر استمر الزحف ، وبلغ مرسى مطروح ، واستولى الإنجليز على بقبق يوم ١٠ ، وفي اليوم التالي سقطت حلفاية والسلوم . .

وهكذا كانت الحوادث تتطور بسرعة عاجلة ، وارتدت قوات المحور إلى حدود مصر ، وفي يوم ١٢ تم تنظيف الحدود المصرية وأسر آلاف من الإيطاليين ، ووجد الجيش الثامن الطرق مملوءة باللوريات والمهمات التي دمرتها الطائرات .

أما الفرق الإيطالية في الجنوب ، وقد كانت تتألف من ٦ فرق معظمها من المشاة ، فقد كانت مطوقة ؛ فلما وصل الجيش الثامن إلى الضبعة وفوكة ، وقطع مراكز تموينها وخطوط مواصلاتها ، سلمت جميعاً ، كذلك تم تنظيف « الجيوب » ، وأخمدت جميع المقاومات في صحراء مصر قبل أن ينتصف شهر نوفمبر سنة ١٩٤٢ .

وانتهت الحرب فى مصر . . .

وبدأ القتال فى برقة . . .

وقد كان لهذا الانتصار دوىّ عظيم فى العالم ، وعدّ انتصاراً تاريخيًّا حاسماً ، فاحتفلت به الإمبراطورية البريطانية، ودقت الأجراس فى جميع أراضيها صباح ١٢ نوفمبر تحية لهذا الحدث العظيم .

وقال مستر تشرشل :

« لقد قال السيد فنزيلوس إن إنجلترا فى جميع حروبها تربح معركة واحدة، وهى المعركة الأخيرة . ويلوح لى أننا بدأنا هذه المرة مبكرين ! فقد نال الجنرال ألكسندر ومعه قائده ومعاونة العظيم الجنرال مونتجمرى انتصاراً باهراً حاسما فيما ينبغى أن نسميه "معركة مصر" ، فلقد هزم جيش روميل ، وأصابه الاندحار ، وحل به التلف إلى حد كبير كقوة مقاتلة .

« ونحن لم نخض هذه المعركة لنربح فيها مواقع أو مساحات واسعة من الأراضى الصحراوية ، ولكن لنحقق فكرة واحدة وهى تحطيم قوة العدو المسلحة .

« إن النصر الذى أحرزناه قد بعث الأمل الكبير فى نفوسنا بأنه سيكون نصراً حاسماً نهائيًّا فيما يتعلق بالدفاع عن مصر ، على أن هذه ليست النهاية ، ولا هى بداية النهاية ، ولكن ربما تكون نهاية البداية ! »



فيلد مارشال سير هارولد الكسندر

معركة الجانب الأقوى

ما هى أسلحة النصر فى الحروب الحديثة ؟ !

يؤيد تاريخ الحرب نظرية النشوء والارتقاء ، فكل حرب جديدة تجىء متميزة عن سابقاتها سواء فى عدد المحاربين أو أنواع الأسلحة أو الخطط الاستراتيجية والتكتيكية ، حتى إن الحرب السابقة تبدو موضع دهشة أو تندر ، تماماً كما يحدث عند زيارة المتاحف الحربية ومشاهدة أزيائها وأسلحتها ومركباتها التى كانت تقتل وتدمر وتثير الفزع وتسيل الدم أنهاراً . . فى سابق العصر والأوان !

ولعل أحفل مسارح الحرب بالطرائف والملاحظات الشائقة هى الصحراء ، فقد كانت تعتبر فى الماضى مانعاً حربياً يصعب على الجيوش اجتيازه ، لما كانت تلاقيه من قسوة التحرك وشدة الحرارة وقلة المياه وصعوبة الاختفاء ، فكانت الحملة تتكون من الجمال والبغال والخيل وفناطيس المياه ، وكانت البنادق المستعملة أو المدافع محدودة المجال صعبة التحرك ، ولهذا كان التفكير فى اجتياز الصحراء من أعمال الجسارة والمغامرة .

وكان نابليون يقول :

« إن حدود الممالك إما أنهار كبيرة أو سلسلة جبال أو صحراء ، وإن أقسى هذه العوائق التى تعوق تقدم أى جيش وأعسرها على التذليل هى الصحراء ! »

ولم تستطع القوات التركية أو الإنجليزية فى الحرب العظمى أن تقوم بعمل حاسم خلال عدة سنوات بين الإسماعيلية وغزة قبل أن يتمكن الجنرال أللنبي من مد نهر من أنابيب المياه وخط حديدى وجيش عرمرم من البغال التى تحمل المؤن وتجر المدافع .

وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد جاءت بالدبابات والمصفحات التى تغزو الصحراء تظللها سحابة من الطائرات تكشف أوضاع العدو وتدك تجمعاته ومراكز تموينه ، فقد بقيت صعوبات كثيرة ، فالجيش — فى المعتاد — يقاتل بمعداته ، أما فى حرب الصحراء فإنه يقاتل أيضاً بقطع الغيار وورش التصليح ، ويقاتل بالوقود اللازم للعربات والدبابات .. ويقاتل أيضاً بكفاية القيادة ومعنويات الجنود .

ولهذا فإن ونستون تشرشل قدر خطأ الألمان فى محاولتهم طرد الإنجليز من وادى النيل .

عوامل النصر فى العلمين :

لقد كانت معركة العلمين نهاية عمليات عسكرية واسعة المدى تحركت فيها قوات ضخمة بين السلوم إلى بنغازى

وبالعكس ، وجرت فيها عمليات التفاف وتطويق ، فضلا عن تجارب المواقع الدفاعية كما حدث فى طبرق ، فلما انتهت المعركة إلى العلمين كانت قد أحيطت بخلاصة التجارب وبأحدث ما طرأ على الحرب الصحراوية من تقدم من الأسلحة والوسائل ، وامتازت معركة العلمين بعدة خصائص تجعل النصر فيها واضحاً ــ حتى قبل بدئها ــ بأنه للجانب الأقوى .

حدثت معركة العلمين فى منطقة محدودة بثلاثين ميلا من البحر ومنخفض القطارة ، والتقى الفريقان وجهاً لوجه ، دون أية فرصة لحركات الالتفاف والمناورة على الأجناب ، وتحدد الغرض تماماً ، فلم يعد السعى إلى كسب مواقع أو احتلال مساحات من الأرض ، وإنما أصبح الغرض وضع أكبر كمية من النيران لقتل العدو وتدمير مركباته والإجهاز عليه نهائياً .

تحددت إذن معركة العلمين ــ قبل بدئها ــ شكلا وموضوعاً ، وتأكدت عوامل النصر ، وصارت نتيجة المعركة رهناً بالآتى :

١ ــ كفاية خطوط المواصلات ، وسلامتها .
٢ ــ أثر نتائج الميادين الأخرى على هذه المعركة مادياً ، ومعنوياً .
٣ ــ السيطرة الجوية .
٤ ــ التفوق البحرى .
٥ ــ كمية النيران .
٦ ــ الروح المعنوية .

نظرة إلى الفريقين قبل المعركة :

١ – بالنسبة للمواصلات :

كانت خطوط مواصلات المحور قد بعدت ٣٠٠ ميل من طبرق ، و ٧٠٠ ميل من قاعدتها المتقدمة فى بنغازى ، وأكثر من ألف ميل من طرابلس .

وقد تعرضت هذه المواصلات المديدة لهجمات جوية مستمرة ، كما كانت قواعدها الساحلية تحت رقابة وعدوان البحرية .

هذا فى حين كانت مواصلات الجيش الثامن لا تمتد أكثر من مائة كيلو متر من قاعدته فى وادى النيل ، كذلك كان التفوق البحرى والجوى لقوات الحلفاء .

٢ – بالنسبة لميادين المعارك الأخرى :

تأثرت قوات المحور فى العلمين بنتائج الحرب فى الميادين الأخرى ، فقد عجزت القيادة الألمانية العليا عن إمداد روميل بفرقة جديدة – وإن كانت منحته رتبة الفيلد مارشال كما قال متندراً وآسفاً – وكان تموين قواته وبنزين دباباته معرضاً لرقابة الغواصات والطائرات ، وبذلك خسرت ألمانيا فى العلمين معركة التموين .

٣ – بالنسبة للتفوق الجوى :

كان التفوق الجوى فى جانب قوات الجيش الثامن منذ

فاتحة الحرب فى شمال إفريقيا ، وكان تعاون الجيش الثامن والقوات الجوية التى تشد أزره كتلة واحدة ، فكلاهما — على حد قول روميل — يعمل لتنفيذ خطة واحدة، لا خطتين إحداهما للبر والأخرى للجو .

وعلى طول ميدان العمليات كانت الطائرات تدق مواقع المحور الخلفية وخطوط مواصلاته ونقط تموينه ومطاراته، ثم اشتد أثرها عند بدء معركة العلمين ، وسجلت رقماً قياسيًّا فى عدد عملياتها التى اشتركت فيها قاذفات القنابل الخفيفة والمتوسطة وطائرات القتال ، فأصابت عربات الذخيرة ،ونسفت مستودعات الأسلحة ، وسجلت إصابات بالغة فى مدافع الميدان وسيارات النقل ، وأشعلت الحرائق ، ودمرت بعض مراكز الدفاع ، كذلك وجهت الطائرات من قاذفات القنابل همّها إلى الأهداف المجاورة للثغرات التى فتحت فى حقول الألغام لمساعدة القوات البرية على شقها .

أما نشاط المحور الجوى فقد كان محدداً ودفاعيًّا ، وقد انهزمت طائراته ولم يعد لها نفوذ فى المعركة ، ومنذ يوم ٢٣ أكتوبر أحرز السلاح الجوى البريطانى سيطرة تامة ، فقام بحملات عنيفة وهجوم ساحق على مطارات المحور وخطوط مواصلاته ومواقع المدفعية ونقط تجمع القوات المدرعة والمشاة .

وفى الأسبوع الأول من الهجوم ألقت قاذفات القنابل ما يقرب من ٨٠٠ طن من القنابل على قوات المحور فى منطقة

القتال ومطاراته الأمامية ، وأسقطت ٥٥٠ طائرة للمحور ، فى حين لم تستطع طائرات المحور أن تتدخل بأى تأثير ضد قوات الجيش الثامن ، وبخاصة القوات المدرعة التى قامت بالهجوم الرئيسى ، هذا فضلا عما عجزت عنه طائرات المحور من اكتشاف تحرك الفيلق العاشر الذى كان يستعد لخوض المعركة على بعد ٥٠ ميلا من العلمين !

لقد قامت الطائرات بدور خطير فى معركة العلمين ، ويمكن استقراء ذلك من الفاتحة . . فإن البلاغ الذى أصدرته قيادة الشرق الأوسط عن الهجوم فى العلمين ابتدأ بعبارة :

> « هجم الجيش الثامن تؤيده قوة جوية كبيرة . ونشب قتال عنيف اشتركت فيه مقاتلات قسم الصحراء التابع لجيش الولايات المتحدة بالشرق الأوسط ، وقامت فى الوقت نفسه قوات الحلفاء البحرية بغارة على مراكز المحور الساحلية عند مرسى مطروح . . » :

٤ — بالنسبة للسيطرة البحرية :

كذلك تأثرت معركة العلمين بما كان للحلفاء من سيطرة بحرية لم يستطع أن يتوصل إليها الأسطول الإيطالى ، على الرغم من استخدامه المياه الإقليمية التونسية ، وكانت الغواصات التى تؤازر عمليات الجيش الثامن تعمل بنشاط كبير على طول

الشاطئ لتعويق وتدمير الإمدادات من البحر ، حتى إن أربعة أخماس المراكب التى خرجت من الموانئ الإيطالية أواليونانية أغرقت أو ارتدت .

وفى خلال المعارك البرية قامت القوات البحرية البريطانية بإغارات متواصلة على المراكز الساحلية مستخدمة «سفن الجيب» وهى زوارق طوربيد سريعة صنعت حديثاً فى المصانع الأمريكية.

وجاء فى البلاغ الذى أذاعته قيادة الشرق الأوسط يوم ٤ نوفمبر : « وفى البحر أغرقت قواتنا البحرية والجوية ماحمولته ٥٠ ألف طن من السفن ، وأتلفت مثل هذه الحمولة من السفن التى تحمل الإمدادات إلى شمال إفريقيا » .

٥ ــ التفوق فى النيران :

كان تفوق الألمان فى العمليات الصحراوية ــ السابقة لمعركة العلمين ــ مصدره الدبابات والمصفحات التى كانت تتقدم بسرعة وتعتمد على القدرة على المناورة ؛ وبذلك كسبت معارك المجالات الواسعة ، ولكن تغير الموقف عند العلمين ، وتبدلت احتياجات النصر فى المعركة ، فأصبح التركيز الشديد فى ميزان المدفعية ، والتركيز الشديد فى نيران الدبابات ، إلى جانب تركيز شديد من قنابل الطائرات . . أى أن الجانب الذى يملك نصيباً أكبر من النيران هو الذى سيحرق الجانب الآخر .

كانت مدافع الجيش الثامن تقف بفاصل ثلاثين ياردة بين كل مدفعين ، وتضرب دفعات طويلة مستمرة ، فلما انطلقت إشارة المعركة فتحت المدافع أفواهها مرة واحدة ، فاندفع لهيب هائل من النيران ، وأصبح الميدان مضيئاً متوهجاً مدوّياً أو شعلة رهيبة من نيران القنابل المتفجرة والأنوار الكاشفة والأغراض المشتعلة بالنيران من ساحل البحر إلى منخفض القطارة .

وهكذا كانت قوات الحلفاء متفوقة فى قوة النيران برًّا وبحراً وجوًّا ، ولهذا كانت معركة العلمين معروفة النتيجة قبل التقاء الأسلحة وابتداء الصدام .

٦ — بالنسبة للقوى المعنوية :

تأثرت قوات المحور بما أصابها من إجهاد فى معارك صحراوية شاسعة المجال ، قاسية الجو ، طويلة الأمد ، وكانت مواصلاتها تمتد دون أن يصل إليها من الإمداد والمؤن ما يتناسب مع خطورة القتال الدائر ونتائجه .

كذلك تأثرت بما تناهى إلى أسماع الجنود من تطور فى ميادين الحرب الأخرى ، وبخاصة ما حدث فى ستالينجراد ، حيث توقف الهجوم الألمانى ، وأخذ ميزان هذه المعركة الفاصلة يميل إلى جانب روسيا ؛ أو كما قال أحد المراقبين الحربيين : نتقلت المبادأة من يد إلى يد ، وانتقل الحذاء من قدم إلى قدم .

هذا فى حين أن الجيش الثامن قد استقر فى مأمن ، وخلفه على مسافة قليلة قاعدة تموينه الضبخمة فى وادى النيل، وتغمره المؤن الآنية من كافة أنحاء البلاد المتحالفة فى أمن من التهديد الجوى والبحرى ، وتشد أزره طائرات الولايات المتحدة التى بدأت تتدخل بتأثير شديد فى المعركة الجوية .

وقبل العلمين كان القادة الألمان قد فقدوا القدرة على الابتسام ، وزايلهم الأمل والإشراق ؛ وكان روميل قد يئس من القيادة الإيطالية وأعوانه الذين كانوا يميلون إلى الاستسلام، ثم كفر بالقيادة العليا الألمانية وهتلر ،وبدأ يستشعر الخطر الداهم المحدق بمصير الحرب عامة ومصير ألمانيا خاصة، وأدرك أن برلين صارت عاجزة عن القيادة الفنية للحرب ، وسادرة فى خطة لا تقوم على بصيرة .

وعندما تنهزم معنوية القائد ، وتسوء معنويات الجنود ، فإن نتيجة المعركة تتأكد قبل بدئها ، وظهر ذلك واضحاً فى معركة العلمين ، فقد كانت جميع الظروف مادية ومعنوية فى جانب الجيش الثامن ، ثم فصلت فى المعركة قوة النيران ، فالجانب الأقوى هو الذى أحرز النصر .

الأحداث الفاصلة والدروس المستفادة

هل بقيت لمعركة العلمين أهميتها الفنية بعد خمس وعشرين سنة ؟

فصلت معركة العلمين فى مصير الحرب التى دارت رحاها فى شمال أفريقيا بين إنجلترا وحلفائها من ناحية وبين دولتى المحور من الناحية الأخرى . وكان هدف الفريقين : إحراز السيطرة على البحر المتوسط وقناة السويس . وبانتصار الحلفاء فى العلمين تم تحرير شمال إفريقيا من قوات المحور ، وتحقيق أغراض المعركة تماماً .

كانت معركة العلمين أقوى معارك الحرب الإفريقية وآخر فصولها ، ولكن أثرها لم يقف عند هذا الحد ، فقد تحول الحلفاء من الهزيمة إلى النصر فى كافة المعارك التى جرت بعد العلمين .

ومعركة فاصلة كهذه ينبغى ألا توضع فى متحف التاريخ وحسب ، وإنما ينبغى أن تظفر بما هى جديرة به من دراسات وبحوث ومراجعات فى كل ناحية من نواحيها ، وهذا هو ماحدث فعلا ، فقد أصدرت المطابع عديداً من النشرات والكتب والمراجع الرسمية والإحصائية عن معركة العلمين ، تناولت أحداثها الشهيرة ، ووقائعها ، وقادتها ، وأسلحتها ، وخططها . . .

وعلى الرغم من مرور ربع قرن على هذه المعركة استمرت فى إغرائها الكتاب والمعقبين الحربيين الذين يجدون فى العلمين مادة مشعة تهدى إلى كثير من الظاهرات الحديثة والدروس المفيدة . .

وهكذا بقيت لمعركة العلمين أهميتها الفنية ، برغم مرور خمس وعشرين سنة .

قيادة واحدة للبر والجو :

ولعل فى مقدمة الظاهرات التى تميزت بها معركة العلمين ذلك التعاون الوثيق بين قوات البر والجو ، فقد نقل مونتجمرى قيادة الجيش الثامن بحيث تكون إلى جانب قيادة السلاح الجوى ، وقال : « لا توجد قيادة للبر وقيادة للجو وإنما قيادة واحدة .. هذا هو سر قوتنا » :

الهدف هو تدمير العدو :

وقد تطور مفهوم الهدف فى الحرب بما حدث فى معركة العلمين ، فلم يعد الغرض هو الحصول على مساحات شاسعة من الأرض ، أو الاستيلاء على عدد من المدن والمواقع الهامة ، وإنما أصبح الهدف تدمير قوات العدو الرئيسية وخطوط مواصلاته وتموينه ومراكز تجمعه ، وإنهاء قدرته على مواصلة القتال :

أهمية القائد فى المعركة :

كذلك كشفت معركة العلمين عن أهمية القائد، تأكيداً للقول المأثور : « كيفما يكن القائد يكن الجنود » ؛ بل أثبتت هذه المعركة أيضاً أهمية تغيير وتجديد القيادة فى المرحلة الحاسمة ، ووضح أن تغيير القيادة معناه خطط جديدة ، وتصميمات جديدة ، وروح جديدة . . وليس فقط مجرد تغيير رجل لأنه جانبه الصواب أو تخلى عنه التوفيق .

عندما عزي إلى الجنرال ريتشى التهاون والغياب عن أرض المعركة عند هجوم قوات المحور على طبرق ، أسرع الجنرال أوكنلك فأخذ زمام الموقف ، وتولى القيادة ، وأحدث ذلك هياجاً ضد ريتشى فى مجلس العموم البريطانى ، فوقف ونستون تشرشل وقال شيئاً جديداً ، وضع به تقليداً أو مبدأ لم يخطر ببال أحد من قبل ، قال تشرشل :

> « لا بد للحكومة أن تقف كالطود لتدفع عن القواد فى ميادين القتال كل نقد أو لوم، ولا بد أن نهيئ لهم فرصة أو أكثر من فرصة ، لأنكم لا تجدون قواداً يستهدفون للأخطار ما لم يشعروا بأن من ورائهم حكومة قوية . . فلا يجدون ما يحملهم على النظر من فوق مناكبهم خوفاً مما يقال عنهم فى أرض الوطن » .

كذلك حدث عندما جاء دور المعركة الفاصلة — فى العلمين — أن أجريت عدة تعديلات فى القيادة ، وتولى « الجنرال » مونتجمرى قيادة الجيش الثامن . لم يكن هذا هو كل التغيير الذى حدث ، بل تم تعيين قائد جديد للشرق الأوسط هو الجنرال ألكسندر ؛ وحدث مع تغيير القيادة إجراءات عديدة استعداداً للمعركة بوصول الإمدادات السخية من الأسلحة والمعدات والمؤن إيذاناً ببدء مرحلة جديدة حاسمة ، واستقبل الجنود ذلك التغيير بالتفاؤل والاطمئنان والتصميم على إحراز النصر .

ولا ريب أن تغيير القيادة وإسنادها إلى شخصيات لامعة موثوق بها قد بعث فى الجنود روحاً جديدة وثقة بالغة .

الجديد فى استحكامات الميدان :

عندما وقف الغريمان فى العلمين ، بعد أن حزما أمرهما للمعركة الحاسمة ، كانت طبيعة الأرض تحكم الخطط ، وتقرر أنواع الأسلحة ، وتحكم بالفوز للفريق الذى يملك التفوق فى النيران .

وكان كل فريق يوطد قدمه حتى لا يقتلعها الفريق الآخر ، ثم يطور نفسه بعد ذلك للقيام بالهجوم متى وجد إليه سبيلا .

والشيء الذى جدّ على استحكامات الميدان فى هذه الساحة

هو استخدام الألغام البرية استخداماً سريعاً واسع النطاق : وقد حدثت بعض تجارب سابقة فى استخدام الألغام وبخاصة عندما وقف الألمان أمام حقول الألغام البريطانية «فى بير حكيم»، فعمد روميل إلى تطهير طريق فى وسط حقول الألغام بواسطة قنابل المدافع وقنابل الطائرات ، ثم دفع بالمهندسين بعد ذلك لتمهيد طريق تقدم المشاة والدبابات .

فلما انتهى الفريقان إلى مواقعهما فى العلمين عمد كل منهما إلى بث الألغام بكميات كبيرة وبعمق ، ولهذا توقفت المحاولات اليسيرة التى قام بها الفريقان ، وعدلت على إثر ذلك الخطة بعمليات تثبيت وتعميق حقول الألغام .

ووضح أن الهجوم لن يتيسر إلا على طريق مفتوح فى ذلك السد المنيع من الألغام ، فكانت خطة مونتجمرى تبدأ بوابل قوى من قنابل الطائرات ، وعاصفة مدمرة من نيران المدفعية ، لتحطيم الدفاعات ، يتبعها تقدم المشاة بمساعدة المهندسين ، لتمهيد الطريق بين الألغام ، فى حين تستمر الطائرات من قاذفات القنابل فى ضرب الأهداف المجاورة للثغرات التى فتحت لمساعدة القوات البرية على شق طريقها :

الترانزستور فى المعركة :

من الظاهرات التى اتسمت بها معركة العلمين التطور الكبير الذى حدث فى طريقة الاتصال الميدانى ، أى الاتصال بين القائد وقواده المساعدين أو قواد الوحدات الفرعية ، وأيضاً بين القادة والجنود .

قديماً كانت الجيوش تتحرك بإشارة واحدة من القائد ، أو كان القائد يقف فى بقعة مرتفعة فيلوح بقبعته ، وعندها تهدر المدافع ، ويدوّى الرصاص ، ويندفع آلاف الجنود . وكان نابليون يشير فى أحلك أوقات القتال بطرف أصبعه ، فتندفع فرق الفرسان إلى ساحة الموت وهى تصيح : يحيا الإمبراطور !

وكثيراً ما كانت القوات تتحرك فى الحرب دون أن تعرف الغرض إلا عندما تصبح أمامه ، وكان نابليون لا يطلع أحداً على خطته ، ولكنه ينفذها فى اللحظات الأخيرة التى تسبق الاشتباك .

كان يضع فى اعتباره أهمية السرية والأمن ، ويخفى فى نفسه عنصر المفاجأة .

ومع تطور ظروف الحرب واتساع ميادينها ، وتنوع أسلحتها ، وتعدد مركباتها ، صار لزاماً على القائد أن يطلع معاونيه على

الموقف مبكراً ، ويشاورهم فى الأمر ، ويضع معهم الخطة ، ثم يواليهم بالمعلومات والأوامر اليومية .

ولكن لم يعرف قبل العلمين أن القائد يرى واجباً عليه أن يحيط جميع رجاله بتفاصيل الموقف . لم يعد علم القادة الفرعيين بالخطة والأوامر أمراً ثانويًا فى نظر القيادة الحديثة ، ولم تعد الأوامر المكتوبة هى الوسيلة المناسبة فى الحروب الحديثة .

وبدأ الاتصال باللاسلكى . . .

ثم حدث تطور آخر لا يدع فاصلا بين القائد وجنوده : الترانزستور . . القائد يتكلم ، والجنود — كل الجنود — يسمعون .

إنه عصر جديد ، ومرحلة غاية فى التقدم . . .

لم يعد الجندى مفصولا عن قيادته ، ولا ممنوعاً عن أخبار الوطن ، ولا غريباً عما يجرى فى العالم من أحداث وأشياء .

ويؤكد بعض المراقبين لمجريات الحرب أن الذى كسب الحرب العالمية الثانية — أو فى مقدمة أسلحة الفوز فيها — هو الراديو .

استراتيجية الدعاية :

لا ريب أن الجانب السيكلوجى يعتبر كبير الأثر فى الحرب . وما الحرب إلا تصارع القوى الهائلة طبيعية وأدبية ، كما أن التأثير على الجنود ، والتأثير على الشعوب تعتبر فى مقدمة أهداف الحرب .

إن تحطيم إرادة العدو هى الهدف الرئيسى .

وقد أدركت بريطانيا فى الحرب العظمى — كما سيطر هذا الإدراك فى الحرب الثانية — أن التغلب على ألمانيا بالقوة أمر صعب ومطلب مستحيل ، وأنه لا بد لقهرها من استخدام وسائل أخرى غير الوسائل المادية ، ولهذا أنشئت مصلحة خاصة للدعاية ذات مسئوليات واختصاصات واعتمادات ضخمة يرأسها لورد بيفربروك ويديرها نورثكليف وكيبلنج وروذمير ، الذين وضعوا خطة نشر الأكاذيب والأوهام ، وتبشير الناس بالصلح ، وحكم الشعوب نفسها بنفسها ، وتخدير الأمم المتخلفة ، وإحكام روابط الإخاء والتعاون بين أمم العالم .

ولم تستطع ألمانيا أن تتغلب على إنجلترا فى معترك الحرب السيكولوجية ، لأن إنجلترا حذقت الدهاء السياسى ، ووقع الشعب الألمانى فريسة الألفاظ الخادعة والدعاية الجوفاء ، أو كما قال هندنبورج :

« لقد شن العدو حرباً ضد الأنظمة الألمانية ، ووضع الخطط لتسميم رءوسنا ونفوسنا بهذه الحملة التى دبرها بعناية فائقة وبراعة مبتكرة » .

وقال لودوندورف جنرال ألمانيا :

« إن الذى أصيب به الشعب الألمانى أكثر من أزمة الجوع والنقص هو : الدعاية . . إن الأعداء الذين عجزوا عن مقاتلتنا بالسيف عمدوا إلى إضعاف ثقتنا بأنفسنا وقهر معنوياتنا . .

« إن عدم حنكتنا السياسية أوقعتنا فى شباك الشعارات الجوفاء والعبارات الدعائية التى تهز الثقة وتهزم النفوس » .

* * *

إن إنجلترا اشتهرت من قديم الزمان بقدرتها على بث الدسائس وإثارة الفتن وإضعاف ثقة الشعب بقيادته ، وقد أقر رجالها بأنهم يستطيعون التفرقة والانقلابات كلما شاءوا .. ولقد أدركت إنجلترا أن التغلب على ألمانيا فى ميدان الحرب متعذر ، وأنه لابد من تقويض معنويات الجنود ومحاولة هدم دعاة الإمبراطورية بما فى ذلك ركنها الركين : الجيش الألمانى .

وقبل معركة العلمين كان قد استحوذ على الجنود الإنجليز رعب كالإعصار اسمه « روميل » كانوا يشعرون أنه فوق مستوى القادة ، أو أن به مساً من الجن يجعله قادراً على فعل أى شىء ، ومن ذلك هزيمتهم فى أى معترك ، ولهذا كانوا يولون الفرار بسرعة غير مألوفة ، ويتراجعون باضطراب ورعب لأن شبح روميل كان يترصدهم ويتعقبهم .

وأحست القيادة الإنجليزية بهذا الانهزام المعنوى الفاجع ، وراح أوكنلك يناشد ضباطه أن يؤكدوا للجنود أن روميل هو قائد ألمانى عادى غير خارق للعادة ، وأنه ليس شيطاناً تتعذر هزيمته :

وصدرت نشرات عديدة تحمل هذا المعنى ، وتحاول أن

تقلل من أهمية روميل ، وأن الجيش الثامن هو الذى سيقرر مصير المعركة . .

واستمرت محاولات الدعاية تحمل إلى الجنود أنباء الإمدادات والمؤن والقيادة الجديدة وبشريات النصر ، حتى استعاد الجنود ثقتهم وطردوا الوهم جانباً ، ودخلوا المعركة بثقة وتفاؤل وروح هجومية .

النصر النهائى :

وقد وضحت حقيقة كبيرة فى الحروب العالمية هى أن النصر ليس رهناً بمعركة واحدة ، لأن هناك عدة ميادين فى متعدد الأنحاء ، بل فى أكثر من قارة ؛ هذا بالإضافة إلى معارك الأسلحة المختلفة كالبحرية والطيران .

إن النصر فى معركة لا يعتبر انتصاراً ، لأنه قد يقابل بهزيمة فى معركة أخرى ، والاستيلاء على مساحات شاسعة من الأرض لا يكون فى حد ذاته غرضاً يستحق ما يبذل فيه من جهد ، بل قد يتحول إلى أعباء ومشكلات بالنسبة لامتداد خطوط المواصلات وتعرض قوافل الإمداد والتموين لخطر التعرض البحرى أو الجوى :

وقد كان بسمارك يقول : ليس المهم ما يقع فى آسيا ، إن القول الفصل سيكون فى أوربا :

فهل غيرت معركة العلمين من هذه الحقيقة ؟

لقد كانت معركة العلمين معركة كبيرة وفاصلة، على إثر تدمير فيلق ألمانيا الإفريقى والقوات الإيطالية المتعاونة معه ، حتى لم تعد قادرة على أى قتال جديد ، فعمدت إلى التغطية والانسحاب وقتال المؤخرة حتى تمت تصفية الموقف أخيراً فى تونس .

أى أن العلمين حققت غرضها فى القضاء على قوات المحور فى شمال أفريقيا ، وهذا فصل كبير ، ولكن الرواية لم تتم فصولا .

فقد كان هناك قتال رهيب فى اليابان ، وقتال دموى فاجع فى ستالينجراد . . .

وكان قد مضى على الحرب العالمية الثانية ثلاث سنوات . .

ثلاث سنوات من الهزائم المتلاحقة للدول التى عرفت باسم « الحلفاء » ، ولكنها كانت جميعاً هزائم فرعية فى بقاع متعددة فى مختلف الميادين ، فلم يكن النصر فى إحداها شفيعاً بإنهاء القتال أو مؤثراً إلى الحد الذى يستوجب التسليم .

على أن العلمين — كما قدمنا — كانت وقعة كبيرة ، انتهت بوثوب قوات الحلفاء إلى الشاطئ الفرنسى وفتح الجبهة الثانية واستسلام إيطاليا .

أما فى الشرق الأقصى فقد فصلت القنبلة الذرية — على هورشيما — فى الحرب واستسلمت اليابان .

وبدأ القول الفصل – كما تنبأ بسمارك ، أو كما أكد – فى أوربا .

كانت الجيوش الروسية تتقدم من الشرق دافعة أمامها فلول الجيش الألمانى ، فى حين كانت الجيوش المتحالفة تتقدم من الغرب – كما تمضى السكين فى الزبد – وكان الهدف برلين .

وربما كان النصر النهائى بلا معركة تتوافر لها طبيعة المعارك من استعدادات سابقة وخطط وعمليات مرسومة ، بل يمكن القول بأن دخول القوات الروسية وقوات الحلفاء إلى برلين لم يكن موقعة حربية ، وإنما كانت عملية تعزيز للمعارك السابقة ، ومتابعة للقوات المندحرة ، واستيلاء على المدينة التى لفظت أنفاسها . . .

وعندها . . انتهت الحرب ، وارتفع علم النصر بعد ست سنوات من حرب صعبة المراس ، متدفقة الدماء شديدة الويلات .

وقال الناس بعدها :

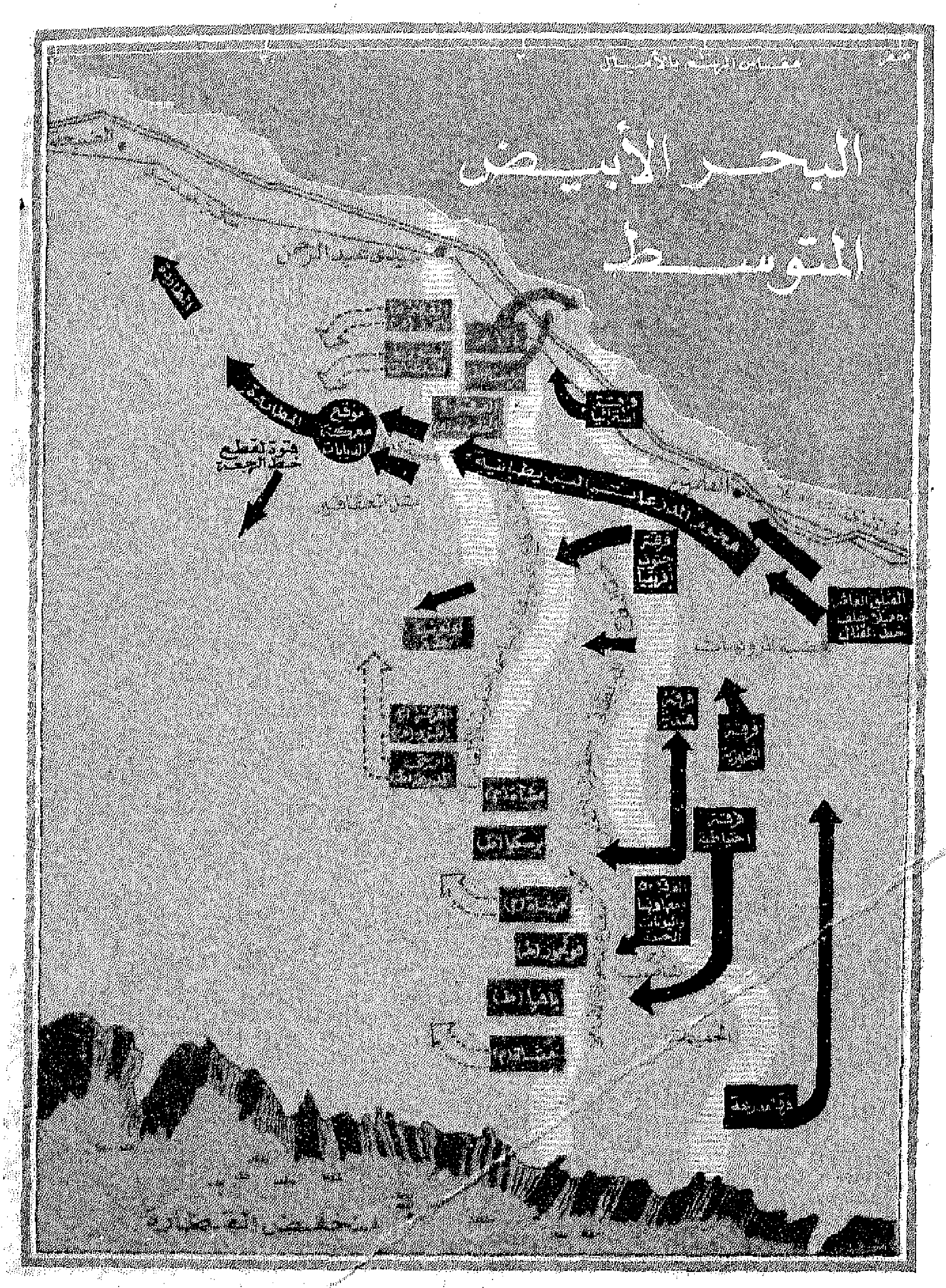
لقد انتهت الحرب .

. . ولكن هذا هو ما يقال دائماً فى أعقاب كل حرب !

الفهرس

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر


بعد المرح واللعب
حمّام بارد أو ساخن
+
بودرة تلك معطرة قسمة
=
حيوية ونشاط .. للكبار والصغار..
صالتنا للعرض والبيع: ٢٤ شارع طلعت حرب (سليمان باشا) مدخل سينما راديو بالقاهرة
١٧ طريق الحرية بالاسكندرية



معركة العلمين الكبرى